

حكايات من زمن الخوف

شهادة على العصر

(الجزء الثاني)

ياسر بكر



شهادة على العصر (١٩٥٤ ـ ٢٠١٤)

(في ثلاثة أجــزاء)

ياسر بكر

حكايات من زمن الخوف

ا(لجزء الثاني)

(الطبعة الأولى)

يناير ٢٠١٨

طبع بمطابع حواس

***

توزيع أخبار اليوم

« ـ ها أنت تقفز للنهاية .. هلا حكيت الحكاية

ـ .. ولمن أقول؟!

ـ هذى صفوف السنط والصبار تنصت للحكاية .

ـ ألها عقول؟!

ـ ماذا يضيرك .. ألق ما فى القلب حتى للحجر، أو ليس أحفظ للنقوش من البشر؟!»

نجيب سرور

من ديوان «لزوم ما يلزم»

القاهـــــرة

المدينة .. والجامعة

(١٩٧٢ ـ ١٩٧٨)

(الجزء الثانى)

- مدينة «البزرميط»
- جامعة القاهـــرة
- الحركة الطلابية

الفصل الأول:

مدينة «البزرميط» !!

مع نسمات فجر يوم خريفى لطيف من أيام سبتمبر ١٩٧٢ .. بدأت الرحلة إلى القاهرة، همست فى أذن الأسطى عبد العاطى أبو زيد السائق (يرحمه الله):

- «أننى لا أعرف الطريق إلى بيت خالى الذى من المفترض أن أنزل عليه ضيفاً !!».

وقال الرجل:

- « ولا يهمك يا أستاذ، وأضاف ضاحكاً: بتحصل فى أحسن العائلات!!، .. أنا عارف المكان، وسأقوم بتوصيلك لحد عتبة الباب.»، .. كنت تقريباً فى عمر ابنه جمال .

.. وتنفست الصعداء، وقلت: «الحمد لله»

الأسطى عبد العاطى أبو زيد سائق إحدى السيارتين الأجرة اللتين يتم تسيرهما على خط فيشا الصغرى - تلوانة - القاهرة .. كانت أشجار البونسيانا بزهورها الحمراء على جانبى الطريق من قرية الخضرة إلى القناطر الخيرية تدخل البهجة إلى النفس، لكننى كنت مهموماً بشأن القادم فى مدينة لا أعرف عنها كثيراً.

كان الأسطى عبد العاطى يستشعر قلقى وحيرتى؛ فكان من آن لآخر

يهمس إلىّ مطمئناً: «خليها على الله .».

كان يومى الأول فى القاهرة طويلاً ومملاً وكئيباً فقد قضيته حبيس غرفة فى شقة خالى لم أخرج منها إلا للطعام، وقضاء الحاجة .. كان من المفترض أن أذهب فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى؛ ليتم توقيع الكشف الطبى علىّ فى إدارة الشئون الطبية (القومسيون الطبى) التابع لجامعة القاهرة والكائن مقره بشارع يافع بن زيد المتفرع من شارع مراد بالجيزة .

على العشاء سألنى خالى الموظف بوزارة الأوقاف الذى نزلت ضيفاً عليه فى شقته بشبرا:

ـ هل تعرف الطريق إلى مقر القومسيون الطبى؟!

وأجبت بالنفى .

أبدى خالى تأففاً، وظهرت أمارات الضيق على ملامحه وغمغم قائلاً:

ـ لقد استنفدت أيام الأجازة العارضة، .. وسأحاول تدبير من يصحبك إلى هناك !!

أجرى بعض المكالمات التليفونية التى لم تسفر عن شيء .

وفى النهاية قرر أن يصحبنى إلى هناك؛ فاتصل بزميل له لينهى له إجراءات أجازة ليوم واحد.. استشعرت أننى مثل «سلعة محملة» على علاقة أمى بأخيها، وأننى مثل حمل ثقيل على خالى فى مدينة بلا قلب، وأحسست بمشاعر مختلفة بين الإحساس بعار الجهل، وذل الحاجة، وأدركت معنى المقولة: «فى السؤال ذل ولو إلى أين الطريق»، واختلطت تلك الأحاسيس بإحساس بالغيظ من هذا النكران لجميل أبى (يرحمه الله)، كان الغيظ يملأ نفسى، وكدت أجهر بمطالبته بالوفاء بدينه لأبى .. لكنى تذكرت أن المعايرة ليست من شيم الرجال، وأنها عار يلتصق بمقترفها، وهمست معزيا نفسى: إنها الحياة وطبائع بعض البشر التى تجعل الحياء فى الوجوه حال وجود الأحياء من ذوى الفضل، ولا وجود له بعد انتقالهم إلى رحاب بارئهم، وكثيرون من خِرق البشر لا يذكرون للأموات فضلاً أو معروفاً!!

وفى الصباح اصطحبنى إلى مقر القومسيون الطبى .. أخذت الممرضة بياناتى وبطاقة تحقيق الشخصية وبطاقة الترشيح للقبول بالكلية .. بعد دقائق دعتنى للدخول إلى غرفة الطبيب .. وجدت الطبيب رجلا فى العقد الخامس من عمره .. تثاءب وهو يغمس عود من البقصمات فى كوب من الشاى المخلوط بالحليب، وسألنى:

ـ بتشتكى من حاجة ؟!

وأجبت بالنفي؛ فوقّع على الأوراق دون أن ينظر إلىّ، وبغير توقيع الكشف الطبى علىّ، وأفاد كتابة بالأوراق بأنى لائق صحياً، وأزاحها فى

قرف من أمامه؛ فالتقطتها الممرضة ووضعتها فى أحد الأدراج !!

نظرت إلى الطبيب، ولا أدرى لماذا استحضر ذهنى صورة الأبقار التى تحت أشجار التوت في تلوانة تجتر طعامها فى استرخاء تحت شمس الضحى .. ربما كان التشابة بينهما كبيراً .. كانت شخصية ذلك الطبيب هى النمط المتواجد فى المدينة بعد أن ابتلعت الجندية كل العناصر الواعدة من الرجال والشباب وقذفت بهم إلى جبهة القتال، ولم يبق فى المدينة سوى تلك النماذج المعطوبة من نوعية المنخنقة والمتردية والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع !!

.. وشعرت بالغيظ، ولم أنطق بكلمة، وظللت طوال الطريق إلى بيت خالى واجماً، وقد اتخذت قرارى وحزمت أمرى.

عندما وصلت بيت خالى وقبل الغداء، استأذنت فى الخروج لبعض الوقت .. كنت قد اتخذت قرارى بالاعتماد على النفس، وأننى لن أجعل مركبى ترسو فى مرفأ غيرى .. ولن أضع كرامتى تحت رحمة متنطع يدعى فضلاً!! .. كان معى عناوين بعض الأصدقاء، وسألت أحد المارة عن كيفية الوصول لأحد هذه العناوين، وتمكنت من الوصول، وقصصت على صديقى الحكاية، وسألته عن إمكانية مشاركتى له غرفته لمدة أسبوع على أن أدفع له جزءاً من إيجار الحجرة وأتحمل معه مناصفة تكاليف المعيشة .. أبدى صديقى ممانعة صورية ثم لم يلبث أن وافق .. ونزلنا لتناول وجبة من الفول والطعمية الساخنة .. لأول مرة منذ وطئت قدماى القاهرة أحس بشهية جيدة لتناول الطعام، وأشعر بنسائم هواء القاهرة يلفح

وجهى وينعش نفسى .

.. ومن أحد أكشاك بيع السجائر بالشارع اتصلت ببيت خالى، وأبلغته بقصة مختلقة مفادها أننى قابلت أحد الأصدقاء فى الشارع مصادفة، وأننى سأقضى بعض الوقت فى ضيافته!!

.. ورغم ان القصة لم تكن مقنعة لكلينا إلا أن كلينا قد قبلها بارتياح كمن أزاح عن صدره ثقلاً.

***

كنت قد حزمت أمرى على اكتشاف القاهرة المدينة التى سأعيش فيها أيام دراستى، ولم يكن هناك بدّ من أن أرمى نفسى بين أمواجها ، وقفزت إلى ذاكرتى عبارات من بعض ما كتبه الأستاذ محمد ثابت رائد أدب الرحلات فى مصر والذى حاول الأستاذ أنيس منصور أن يقتفى أثره، لكن الأستاذ أنيس سقط فى دوامة الادعاء وفقدان المصداقية بالخلط بين الحقائق والأكاذيب التى اختلقها، والمشاهدات الشخصية وما ادعاه لنفسه من المنقول عن تجارب الغير، .. وكان أهم ما قاله الأستاذ محمد ثابت:

«إن المدن لا تفضى بأسرارها إلا للصعاليك .»

لذا كان القرار أن أقتفى حذو الصعاليك فى هتك أستار ما تخفيه القاهرة من أسرار، كانت القاهرة بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ أشبه بـ «**امرأة ثكلى**» هدها الخطب.. ورسمت يد الزمن الخشنة أخاديد الوجع على ملامحها، فاتشحت بأمارات «**الحزن المقاوم**» الذى يدفع إلى السخرية أكثر مما يثير التعاطف؛ فكانت مثل المهرة العرجاء فى حلبة السباق تدارى عجزها بعلو الصهيل!!؛ فاقيمت الحوائط الأسمنتية أمام أبواب البنايات، ووضعت الشرائط اللاصقة على زجاج النوافذ بعد طلائه باللون الأزرق، وكان على أبواب المبانى الحكومية جندى مدجج بالسلاح متمترس خلف حائط من أكياس الرمل، وقد كتبت على الحوائط الشعارات التى صكها فى خطاباته زعيم الهزائم الراحل جمال عبد الناصر من عينة: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، و «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، وفى المساء كانت شوارع القاهرة دائما تحت جناح إضاءة خافتة نتيجة طلاء مصابيح الشوارع باللون الأزرق أو غارقة فى الظلام الدامس لتلف لمباتها وغياب الصيانة.. وكان المشهد برمته عبثياً .. وقد لخصت النكتة المصرية الحال فى دعابة مفادها أن طائرة عملاقة من طراز فانتوم إسرائيلية قابلت طائرة مصرية صغيرة من طراز سوخوى؛ فسألتها رايحة فين يا شاطرة ؟!؛ فأجابت الطائرة السخوى فى رعب: «رايحة أسخ .»!!

كانت الصحافة مراقبة وخاضعة لسلطة الرقيب الحكومى، لكن الهمس الدائر فى المجالس كان لا يخرج عن كونه أحاديث تعمق لروح الهزيمة، والسخرية من النظام الذى فقد هيبته، وانتشرت بين الناس المقولة التى تعكس فقدان الثقة فى إعلام النظام:

«خذ الكذبة من الإذاعة، واعرف الحقيقة من الإشاعة (الشائعة)» .

وقد انعكس هذا على سلوك المصريين بصفه عامة، وعلى القاهريين بصفة خاصة؛ فأصبح أغلب سكان القاهرة يتسمون بالعدوانية فى التعامل مع الوافدين، وتمثلت تلك الروح العدوانية فى ظاهرة خطف «طواقى الفلاحين» وإهانة «عمائم الصعايدة»، والعدوان على مركبات النقل العام وتمزيق الكراسى، وتحطيم مصابيح الإضاءة، والإساءة إلى المبانى الحكومية بكتابة عبارات تفتقد اللياقة ويغلب عليها طابع البذاءة ذات الإسقاطات الجنسية !!

وانتشرت على هياكل المركبات العبارات التى أسماها عالم الاجتماع د. سيد عويس «هتاف الصامتين» وكلها تحمل أنين الوجع من عينة: «هشتكيك لله ياللى ظالمني»، و «روح منك لله»، و«سيبها تعك .. وربك يفك»، و«أنا جيت أبيعك يا حنة .. كترت الأحزان»، و«يارب يرجع السبع .. سبع مثل عاداته، ويرجع الكلب .. كلب لرقدته على الكوم»، و«لو الزبادى يرجع حليب .. العدو يبقى حبيب».

كان الشارع القاهرى يعج بالبنات والسيدات من مختلف الفئات العمرية اللاتى يرتدين الملابس الحاسرة من موضات «المينى جيب» و«ميكروجيب» و«الشورت الساخن Hot Short» التى تكشف عن السيقان وتعرى الصدور والبنطلونات الضيقة التى تبين تفاصيل العورات وخطوط الملابس الداخلية أكثر مما تغطى وتخفى، ولم يعد بالإمكان التفرقة بالملبس بين الراقصة وأستاذة الجامعة !!

.. واختفى الشباب من الشارع، ولم يعد يُرى فى الشارع سوى الرجال والشيوخ الذين تجاوزوا سن التجنيد الإجبارى أو الذين تم إعفاؤهم منه لأسباب طبية أو اجتماعية أو الصغار الذين لم يبلغوها بعد، ولم يعد يُرى فى الشارع من الشباب الأسوياء سوى بعض الجنود الذين يقضون أيام أجازتهم أو العائدين من أجازاتهم فى طريقهم إلى وحداتهم .

كان صغار الشباب الذين لم يبلغوا سن التجنيد والذين كان أغلبهم من الطلبة يطلقون ويطيلون شعورهم، ويرتدون القمصان المشجرة والسراويل الضيقة ذات النهايات الطرفية الفضفاضة فى تقليد ساذج وجاهل للحركات الاحتجاجية الشبابية فى أوربا وخاصة فرنسا، التى قام فيها الشباب بالاحتجاج على حكومة ديجول والمطالبة باحترام اللغة الفرنسية وجعل اللغة فوق الكلام، واحترام آداب المائدة الفرنسية وإغلاق المطاعم التى لا تلتزم بها أو التى تحمل أسماء لافتاتها غير فرنسية، وفى انجلترا كان احتجاج الشباب من خلال الاحتجاجات فى الجامعات البريطانية، ومن خلال ظهور فريق البيتلز (الخنافس Beetles) للتعبير عن رفض سياسات الحكومة، وفى أمريكا كانت تداعيات الهزيمة فى فيتنام قد بدأت تلقى بظلالها الكئيبة على المجتمع الأمريكي؛ فظهرت الاحتجاجات الطلابية المناهضة لحرب فيتنام من جامعة ويسكونسن بماديسون وامتدت إلى سائر الجامعات الأمريكية، وأصبح العائدون من فيتنام يشكلون عبئاً على المجتمع الأمريكى بعد أن أصبح من الصعب دمجهم فى المجتمع الأمريكى مرة أخرى، وظهرت حركة الهيبز Hippies التى ادعى زعيمها تشارلز ميللر مانسون (ابن الإنسان) أن روح المسيح قد حلت فى جسده، وأن إنجيلا جديدا قد أُنزل عليه ينسخ كل ما جاء فى الأناجيل المتعارف عليها، ويدعو

للعودة إلى الطبيعة والحياة البدائية، ونبذ كل وسائل التمدن؛ فسكنت تلك الجماعة الغابات، واستبدلت الصلوات بالرقص الماجن والغناء المحموم بعد تدخين مخدر الماريجوانا وممارسة الجنس الجماعى !!

وظهرت الجماعات التى تدعو للسلام وتناهض الحرب، وظهرت جماعات المعارضة التى راحت تدعو لمحاسبة المسئولين الذين زجوا بالشباب الأمريكى فى أتون فيتنام، وضللوا الرأى العام الأمريكى بالأكاذيب التى فضحتها أعداد القتلى والمشوهين والمرضى بأمراض نفسية وعصبية وأمراض يصعب تصنيفها تحت أمراض الجسد أو النفس أو العقل وهو ما أطلق عليه (أعراض فيتنام)!!

.. كما بدأت تظهر على العائدين من فيتنام أعراض عدم التكيف مع المجتمع أو تصديق الإعلام الأمريكى أو الثقة فى القادة الأمريكيين، وبدأت تظهر عليهم علامات الهياج العصبى وأمارات العدوانية ضد الغير؛ ممثلة فى إيذاء الغير ومحاولة تدميره، وضد الذات ممثلة فى العزوف عن الحياة والاكتئاب واعتزال المجتمع والرغبة فى الانتحار !!

.. لكن احتجاج الشباب المصرى كان احتجاجًا ساذجاً لشباب تافه، ولد من رحم الخرافة حكايات الفخار الوطنى المتوارث، ورضع من ثدى الأكاذيب حواديت عظمة الماضى التى ألهته عن انحطاط الحاضر، وكانت مظاهر الاحتجاج موجهة إلى اللاشىء .

.. ونتيجة لغياب شباب الرجال من المجندين عن القاهرة انتشر الفجور، واستشرت الدعارة وسادت حالة من الفسق شأن كل البلاد التى تعيش حالة الحرب، وقد قوبلت موجة الانحلال هذه بأوامر من القيادة السياسية بالتسامح المفرط معها من قبل بوليس الآداب!!

.. وانتشرت بين بعض الشباب ظاهرة تفريغ الكبت الجنسى بالتحرش بالنساء فى زحام المواصلات العامة، وصارت تلك الظاهرة المرضية عرضا كاشفاً لحالة الهزيمة ظهر واضحاً فى ممارسات جيل من الشباب لا يستطيع إقامة علاقة شرعية فى إطار الزواج أو إقامة علاقة آثمة خارجة لمواقعة أنثى برضاها !!

وسادت ظاهرة تعاطى المخدرات بشكل غير مسبوق، وخاصة مخدر «الحشيش» الذى كان يتم إغراق الأسواق به برعاية بعض الأجهزة السيادية، التى كانت تشارك فى تجارته وتسهل عمليات تهريبه بغرض تدبير بعض المكاسب المالية الخاصة بعملياتها، وتغييب وعى الجماهير خاصة فى أيام الخميس الأول من كل شهر حين كانت تقام الحفلة الشهرية للمطربة أم كلثوم .

وأصبح مألوفا أن تجد من يقف أمام أحد أكشاك الشوارع ليحتسى زجاجة من شراب مسكر البيرة حيث كان مسموحاً بتعاطيها مع رخص ثمنها؛ فقد كان ثمن الزجاجة ثلاثة قروش .

ورغم أن الحكومة قد أخذت على عاتقها تأمين الاحتياجات اليومية

للمواطن من الزيت والسكر وشاى التموين المغشوش والمخلوط بنشارة الخشب التى تمت صباغتها بلون الشاي؛ فقد أصبح مألوفا أن تمتد طوابير البشر لعشرات الأمتار أمام المجمعات الاستهلاكية للحصول على دجاجة مجمدة أو كيلو من اللحم المستورد أو كيلو من السمك الروسى !!

.. كانت القاهرة .. مدينة الألف مئذنة .. وحاضرة الألف عام تعانى عضال داء ينخر فى عظامها، وينهش لحمها لكنها كانت تحاول الإخفاء الساذج لأعراضه !!

***

.. بدأت رحلة «التصعلك» فى اليوم التالى بزيارة لحرم الجامعة بدأتها بمبنى كلية الآداب .. شاهدت مدرجات الدراسة، توقفت أمام ضخامة وأناقة مدرج ٧٨ الذى أطلقوا عليه اسم الدعى طه حسين الذى لم يحصل على أى إجازة علمية من أى جامعة مصرية أو غير مصرية ولم يحصل على أى شهادة تؤهله للالتحاق بها، ولم يكن سوى أحد أحصنة طروادة لتنفيذ المخطط الاستشراقى لهدم قلاع الشرق وحضارته المتمثلة فى القرآن الكريم، والكعبة المعظمة، والأزهر الشريف، .. وتوقفت أيضا أمام المدرج المقابل والمماثل له مدرج ٧٤ الذى أطلق عليه اسم الطالب عمر شاهين أحد شهداء الطلاب الفدائيين .. ولكنى لم أرَ فيه سوى أنه أحد قتلى «السذاجة الوطنية» فى معارك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإنجليزى فى التل الكبير فى سنة ١٩٥١ بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، والتى أشعلها فؤاد

باشا سراج الدين وزير الداخلية فى صفقة مشبوهة مع الأمريكان للدفع به إلى رئاسة حزب الوفد بعد انتهاء الدور التاريخى لمصطفى النحاس بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، كان سراج الدين قد اتفق مع الأمريكان على مساعدتهم فى وراثة الإمبراطورية البريطانية الغاربة، والاعتراف بدولة إسرائيل وحماية حدودها !!

كان فؤاد باشا سراج الدين أحد «عرائس المسرح» التى تستخدمها C.I.A. فى تشتيت الانتباه عما يجرى التدبير له فى الخفاء من خلال الاتصال بضباط من الجيش المنتمين إلى تنظيمات احترفت القتل وأهمها تنظيم «الضباط الأحرار» الذى تم اجتزاؤه من تنظيمى «الحرس الحديدي»، و «فداء الملك» لصالح محمد حيدر باشا ضابط البوليس الذى تولى أمر الجيش وكان يلقى معارضة وسخرية من الضباط المحترفين؛ فقام برعاية «الضباط الأحرار» ليكونوا عيونه ورجاله فى صفوف الجيش !!

كان الأمريكان يقدمون الوعود لسراج الدين التى يسيل لها لعابه، بينما الأحداث تجرى فى اتجاه إحداث انقلاب عسكرى تقوده السفارة الأمريكية بالقاهرة عبر قناة «ليكلاند مندوب C.I.A. - الصحفى محمد حسنين هيكل» .. كانت الانقلابات العسكرية إبداعاً أمريكيا خالصاً .. كان من أوائل ضحايا ذلك الانقلاب عملاء أمريكيون منهم محمد حيدر باشا، فؤاد باشا سراج الدين اللذان تمت محاكمتهما أمام «محكمة الثورة»، وعائلة أبو الفتح وآخرون .

وعرفت مكان شئون الطلاب، وسائر مكاتب تقديم الخدمات، وتعرفت

على أماكن الكليات المختلفة التى يضمها حرم الجامعة، توقفت طويلا أمام تمثال الجامعة الذى أبدعه المثال محمود مختار، كان التمثال يحمل وجه فلاحة مصرية تمد يدها بإكليل من أغصان الشجر، وعلى جانبى التمثال جناحى أمون، وعلى قاعدة التمثال شعارات كليات الجامعة، وكلها تحمل السمت الفرعونى .

وتأملت النصب التذكارى لشهداء طلبة جامعة القاهرة أمام باب الجامعة الرئيسى الذى أبدعه الفنان فتحى محمود عام ١٩٥٥ تخليداً لذكرى نضال شهداء طلاب جامعة القاهرة فى مظاهرات تعديل الدستور عام ١٩٣٥، وشهداء الفدائيين من الطلاب فى الكفاح المسلح ضد الاحتلال الإنجليزى فى مدن القناة والتل الكبير ١٩٥١!!

كان التمثال لا يحمل أى ملمح جمالي؛ فقد كان عبارة عن عمود من الجرانيت تعلوه زهرة اللوتس !!

.. وقضيت بعض الوقت أتجول فى ممرات حديقة الأورمان .. وتوقفت طويلاً أمام الأشجار العتيقة، وما تحمله جذوعها من رسائل وعهود العشاق .. وتأملت الممرات الفسيفسائية والبحيرات الصناعية بمياهها الصافية الرقراقة والكبارى الخشبية من فوقها بما تحمله من أناقة وجمال وإبداع..

.. ولتجنب التعامل مع آفات القاهريين التى بدت أعراضها فى سلوكيات معطوبة قررت ألا أسأل أحد المارة عن الأماكن او وسائل الوصول إليها (الأتوبيس - الترام - التروللى باس)، وقررت أن أقصر ذلك على نظار

محطات الأتوبيسات وشرطيى الدركات بمقتضى وظائفهم، لكن خاب ظنى فى الإفادة من كلتا الفئتين من حثالة موظفى الخدمة العامة !!؛ فعندما سألت أحد نظار محطات الأتوبيسات عن رقم اتوبيس يذهب إلى جهة أنتوى الذهاب إليها أجابنى فى ضيق، وشكرته وأنا أهم بالانصراف سمعته يقول لزميله:

ـ أهى الأرياف بتحدف علينا بلاوى !!

.. لم أرغب فى الدخول فى نقاش عقيم مع موظف سافل، لكنى لم أستطع أن أخفى علامات الضيق التى بدت على ملامحى .. فى تلك اللحظة اقترب منى شاب كان يختلس النظر لما يحدث ويسترق السمع لما يدور، كانت ملامحه تشى ولهجته وهندامه وقصة شعره تنبئ بأنه صعيدى، وأشار لى بإصبعه إلى أحد الأكشاك وقال:

ـ هناك يباع كتيب بعنوان: «دليل وسائل النقل العام بالقاهرة ـ الأتوبيس ـ الترام ـ التروللى باس» يكفيك التعامل مع تلك السخافات والسفالات .

.. وذهبت إلى الكشك واشتريت الكتيب بقرشى صاغ، كان الكتيب فى حجم النوتة الصغيرة مقاس ٧ سم × ١٠ سم وعدد صفحاتها ٨٠ صفحة .. أبدى البائع تعاونا معى تحت تأثير رغبته فى بيع بضاعته؛ فعرض علىّ خريطة لشوارع مثلث وسط البلد برؤوسه الثلاث (ميدان التحرير ـ ميدان رمسيس ـ ميدان العتبة) .. كان ثمن الخريطة قرش صاغ؛ ولإغرائى بالشراء راح البائع يشرح لى كيفية التعامل مع رموزها .

.. هكذا استطعت بثلاثة قروش فقط تجنب التعامل مع نطاعات بعض القاهريين ممثلة فى سفالة بعض نظار المحطات وغباء شرطيى الدرك.. كانت إجابة شرطى الدرك على تساؤلاتى دائما لا تتغير: «أمشى على طول، واسأل!!».

كانت تليفونات الشرطة على نواصى وتقاطعات الشوارع دائما معطلة أو لا ترد !!

***

فى اليوم الثالث ذهبت إلى حرم المدينة الجامعية لجامعة القاهرة فى منطقة «بين السرايات» وهى منطقة عشوائية لا تحمل سمة واحدة مما يحمله اسمها، .. وكم يحمل بريق الأسماء من الزيف الكثير!! .. دخلت إلى المدينة الجامعية حيث من المفترض أن أقيم فيها، وتعرفت على نمط الإقامة والإعاشة، .. وتفقدت غرف السكنى وقاعة تناول الطعام ومطبخ طهوه، والملاعب والحدائق .. كان نظام إسكان الطلاب وإعاشتهم أحد أشكال محاولات نظام يوليو ١٩٥٢ لرشوة الطلاب الفقراء؛ بدليل أن الرئيس جمال عبد الناصر بعد مظاهرات الطلبة فى فبراير ١٩٦٨ قد قرر تخفيض رسوم الإقامة فى المدن الجامعية من ٧,٥ جنيه إلى ٥ جنيهات فى الشهر، وزيادة مخصصات بنك الطلبة من مليون جنيه إلى ثلاثة ملايين جنيه .

كان الغرض الحصول على تأييد الطلبة من خلال إحداث بعض

الإصلاحات التعليمية، وفى نفس الوقت تحقيق إجراءات السيطرة التنظيمية وإنجاح أسلوب التلقين السياسى، وجعل قطاعاً واسعاً من الطلبة رهن المراقبة الدائمة، وتحت السيطرة الكافية.

بعد الانتهاء من تفقد المدينة الجامعية.. ذهبت فى نزهة فى حديقة الحيوان .. تجولت فى ممراتها وتوقفت أمام أقفاص الحيوانات، وجلست على مقعد أمام إحدى بحيرات البط البرى، وناديت أحد باعة السميط واِشتريت بثلاثة قروش كعكة وبيضة وقطعة من الجبن الأبيض، ومنحنى البائع لفافة مجانية صغيرة بها قليل من الملح وبعض التوابل .. كانت شهيتى جيدة وكان الطعام لذيذاً، بعد قليل جاء بائع الشاى؛ فاشتريت كوباً بقرش صاغ .

أمام الباب الرئيسى لحديقة الحيوان توقفت طويلاً أمام تمثال «نهضة مصر» من إبداع الفنان محمود مختار .. استرعى انتباهى ضخامة التمثال ودقة الصنعة وصلابة مادته ولمعانها، لكنى لم أجد فى ملامح التمثال ما يحمل معنى النهضة !!؛ كان التمثال يجسد فلاحة مصرية بملابسها التقليدية تضع يدها فوق رأس نسخة صغيرة من تمثال أبى الهول .

كان ما يتم تداوله وتلقينه لنا فى كتب «التذوق الفني» المدرسية أن الفنان محمود مختار هو أحد أعمدة المشروع الحضارى المصرى المزعوم الذى بدأت إرهاصاته مع فاعليات ثورة ١٩١٩ وصدور دستور ١٩٢٣ هو، وسيد درويش فى الموسيقى، ود. محمد حسين هيكل فى فن الرواية .. كان هؤلاء جميعاً من المنتمين للماسون، كان سعد زغلول زعيم

الثورة يشغل موقع أستاذ أعظم فى المحفل الماسونى ، وبعد نفيه راحت المحافل الماسونية تطالب بعودته والعفو عنه ليس بوصفه زعيماً وطنياً، لكن باعتباره عنصراً ماسونياً !!.

.. بدأ إزاحة الستار عن تمثال نهضة مصر فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٨ فى عهد رئيس الوزراء عبد الخالق باشا ثروت (ماسوني)، وكان الاتجاه الماسونى آنذاك هو دفع مصر إلى واجهة الحضارة الإنسانية، وتفسير الأشياء كلها تفسيراً فرعونياً .

كانت حالة من الصخب قد بدأت حول إنشاء التمثال، ودعمت الحكومة مشروع التمثال بـ ٢٠٠٠ جنيه، وفتحت باب الاكتتاب فى إنشائه بمبلغ ٦٥٠٠ جنيه، ولعل أطرف القصص التى تداولتها الصحف آنذاك هى قصة فلاحة مصرية تدعى أم محمد باعت عشر بيضات بقرش صاغ، وتبرعت به مساهمة منها فى إنشاء التمثال !!

وبعد موت سعد زغلول تم إنشاء تمثالين له، وضع أحدهما فى القاهرة عند مدخل كوبرى قصر النيل من ناحية الجيزة والثانى بمحطة الرمل بالأسكندرية .

كان عبد الخالق باشا ثروت (ماسوني) هو الذى أوعز إلى المهندس عثمان محرم بإنشاء ضريح سعد زغلول بمنطقة السيدة زينب على شكل معبد فرعونى فى إطار دعم الفكر الماسوني!!

فى اليوم الرابع مضيت فى زيارة منطقة الأهرامات، واسترقت السمع إلى ما يقوله «الترجمان» الأمى والذى لا يختلف كثيراً عما يقوله المرشد السياحى الدارس، فكلاهما يمزج الخرافة بالتاريخ بهدف الإثارة والتشويق وتحلية البضاعة فى عيون «زائر الصدفة»، وكان كلاهما لا يخجل من إلباس السخرة ثوب البهاء باعتبارهـا «صانعة الحضارة» و«يد التاريخ» .. فكلاهما يتحدث كثيراً عن شموخ الأهرامات وعظمة الفراعين؛ لكنهم لا يأتون ذكراً لمقابر العبيد «بناة الأهرامات»، والتى تقع على بعد ٥٠٠ متر من الأهرامات فى سراديب حفرت فى الأرض لعدة كيلومترات؛ لتكون مقابر للبؤساء الذين شيدوا الأهرامات على مدى مائة وثلاثين عاماً، حملوا خلالها ثمانمائة مليون صخرة تزن الواحدة منها طنين ـ تقريباً ـ جاءوا بها من أسوان إلى حيث الجيزة الآن (٩٨٠ كيلومترا(ليشيدوا تسعة أهرامات، ستة صغيرة وثلاثة كبيرة؛ لتصبح فيما بعد صروحاً تذكارية للفراعين؛ حيث لم يثبت حتى الآن أن الأهرامات استعملت كمقابر حسبما شاع فى عهود مضت !!.

.. وتتابعت الأيام وتوالت جولات الإبحار فى جنبات المدينة الحبلى بالأحداث؛ فأمام مسجد السيدة زينب رضى الله عنها وأرضاها باعت لى بائعة البخور كيساً من نشارة الخشب زاعمة زوراً وغشاً أنه بخور هندي!!

فى ساحة المسجد صليت ركعتين، واكتشفت اختفاء حذائى، وعندما سألت خادم المسجد، أشار إلى لافتة ورقية معلقة على أحد الأعمدة مفادها:

«ضع حذاءك أمامك كى لا يسرقه اللصوص»

ورغم أن الأمر يشكل لى أزمة غير متوقعة إلا أننى استغرقت فى خواطرى، وكان الخاطر الطاغى على عقلى وفكرى هو: كيف لا يأمن الرجل على نعله فى مسجد فى بلد من المفترض كونه بلداً مسلماً !!

وتسللت إلى شفتى فى خجل ابتسامة شاحبة عندما تذكرت أن النحاس باشا تعرض لمثل هذا الموقف، وكان مثار سخرية رسامى الكاريكاتير فى صحف المعارضة بل وسخرية أقطاب من الوفد ذاته؛ فقد كان مصطفى باشا النحاس دائم الداعابة مع القطب الوفدى المسيحى مكرم عبيد، وذات مرة سأله رايح فين يا مكرم فأجابه:

ـ رايح الكنيسة يا باشا.

فقال النحاس باشا:

ـ مش هتسلم بقى يا واد يا مكرم عشان يبقى طريقنا واحد؟!

ورد مكرم:

ـ أسلم !!؛ عشان أروح أصلى فى الجامع يسرقوا حذائى زى ناس (يقصد النحاس باشا) .. لأ، يا باشا .. أنا كده كويس .. وضحك النحاس باشا وضحك مرافقوه، وصارت نكتة مفادها أن مكرم باشا عبيد المحامى القبطى الذى يحفظ القرآن، ويستشهد بآياته فى مرافعاته لا يريد أن يسلم لخوفه على حذائه من السرقة فى المسجد .

.. وكان الخاطر الثاني: كيف تصدر إدارة المسجد تعليماتها للمصلين أن يضعوا أحذيتهم أمامهم، وأن ينشغلوا عن الصلاة بحراستها!!

وعرفت لماذا تم استحداث وظائف بعينها فى التاريخ المصرى ومنها وظيفة البامشقدار (حامل حذاء الوالى العثماني)، الذى كان يتولى حفظ حذاء الوالى عند دخوله إلى المسجد للصلاة، والتى تطورت لتأخذ مسمى «الشماشرجي»، وبعد ذلك «الياور»، كان اللواء فوزى عبد الحافظ سكرتير الرئيس السادات النموذج الصارخ فى زمننا للموظف حامل الحذاء !!

وكان الخاطر الثالث الذى كان يشكل هماً، وهو كيفية الخروج من المسجد والسير حافياً!! لكن سرعان ما جاء الحل سمجاً وكاشفاً عن الوجه الوقح لتلك المدينة .. لكنه حل أفضل بكثير من السير حافياً!!؛ فقد أحضر لى خادم المسجد قبقاباً خشبياً !!

لبست القبقاب، وسرت فى الشارع.. كان المشهد هزلياً، وذهبت إلى فرع باتا القريب من المسجد واشتريت حذاء بـ ٧٥ قرشاً .. كان الحذاء متيناً، ولم يكن أنيقاً ولا مريحاً !!

لم يكن الأمر مختلفاً كثيراً فى مسجد الإمام الحسين عنه فى مسجد السيدة زينب؛ فقد أصر أحد المتنطعين فى إلحاح سمج أن يمسح كفى بما زعم أنه طيب المسك، وطلب قرشاً مقابل ذلك، وامتنعت عن إعطائه وراح يسب ويلعن فى بذاءة بما لا يتفق مع روح المكان !!

قدم لى أحد السقاة كوب ماء من قربة زاعماً أنها بركة من سيدنا الحسين، ولم أستطع أن أتفهم أى بركة تأتى من شربة ماء من قربة قذرة، وما علاقة ذلك الماء بسيدنا الحسين !!

.. كان صخب الجنرال على يملأ المكان، والجنرال على هو أشهر المجاذيب فى المكان، كان يرتدى جاكت كاكى قذراً تم تزيينه بأغطية زجاجات المياه الغازية من الصفيح، ويحمل سيفاً خشبياً يصارع به فى الهواء عدواً متوهماً!!

كان الموقف فى كنيسة سانت تريز لا يختلف كثيراً عن الموقف فى مساجد الأولياء .. كان بكاء المظلومين الذين أتوا ليشعلوا الشموع بوضعها بالمقلوب ورأسها إلى أسفل وسط صلاة للدعاء على من ظلموهم، وإضاءة الشموع بوضعها المعدول وسط الزغاريد امتنانا لبركة القديسين بتحقق الأمنيات !!، وإضاءة الشموع بغرض التطهر مع صلاة أن يجعل الرب ظلمة النفس نورًا.

كان مشهد المظلومين فى سانت تريز لا يختلف كثيراً عن مشهد المكلومين عند مقام أم العواجز سيدتنا الطاهرة السيدة زينب والموجوعين على أعتاب ولى النعم سيدنا الحسين.

***

بعد تلك الجولات أيقنت أننى فى مدينة الثقافات المتعددة والمختلطة

والتناقضات الكثيرة .. إنها «**ثقافة البزرميط**» وكلمة «بزرميط bizarre»، وهى كلمة فرنسية الأصل بمعنى شاذ أو غريب الأطوار أو غير متناسق أو مفتقد التجانس، وتحولت الكلمة فى النطق العامى المصرى إلى «بزرميط» لتدل على نفس المعنى!!

.. و«ثقافة البزرميط» التى يطلق عليها البعض تأدباً سبيكة من رقائق الحضارات (الفرعونية ـ اليونانية الرومانية ـ القبطية ـ الإسلامية)، والخرافات والأساطير والأباطيل، وهو ما انعكس على فكر أهل البلد وظهر فى تناقض الأمثال الشعبية المصرية من النقيض إلى النقيض، والتى يفيض بعضها بالخسة والنذالة ، ومنها على سبيل المثال:

« إذا قابلك الأعمى دبه

وخذ اللى فى عبه

هوا أنت أرحم عليه من ربه !!»

.. والغرباء فى القاهرة عميان حتى لو كانوا مبصرين؛ فالغريب فى متاهة الغربة أعمى، ولو كان بصيراً؛ وهو ما جعل أكثرهم ضحايا للنصابين والمحتالين والنشالين واللصوص والغشاشين فى «**مدينة البزرميط**».

.. والأمثال الشعبية المصرية هى الصوت المعبر عن أفكار ورؤية الكبراء والمهمشين والبسطاء، وهى خلاصة تجاربه الحياتية وخبراته المتراكمة على مر الزمان، والتى تعبر بصدق عن المزاج الشعبى

والأحداث المتلاحقة والمتشابكة مع الواقع السياسى والثقافى والاجتماعى، وهى الدستور الشعبى للمصريين ومرآة تجاربه التاريخية.

وتذكرت ما ذكره الطبرى فى تاريخه عن وصف عمرو ابن العاص للمصريين قائلاً:

«أرضها ذهب.. ونيلها عجب.. وخيرها جلب. . ونساؤها لعب.. ومالها رغب.. وفى أهلها صخب.. وطاعتهم رهب.. وسلامهم شغب.. وحروبهم حرب، وهم مع من غلب».

.. وبدأت أسترجع تجربتى المحدودة فى مدينة «البزرميط»؛ .. فقد علمتنى شوارعها، وعلمنى رعاعها أهم درس .. كان الدرس الذى تعلمته ووعيته جيداً وهو ألا أثق فى أحد؛ وألا أسمح لأحد بأن يفرض إرادته علىّ، وأن صديقى الوحيد فى هذه المدينة هو أنا، وهذا يستلزم ضرورة الاعتماد على ذاتى، وأن التمس إلى ذلك كل ما يتاح لى من الوسائل، ولا أنتظر مساعدة من أحد، وأن يكون صوتى من دماغي؛ لأننى فى مدينة بلا قلب يعشعش الفساد المتعفن فى سائر أرجائها وأركانها وجنباتها، وأن مآذنها أبواق جوفاء تنطق بنداء الحق ولا تعى ولا تعقل ولا تفهم له معنى، وإذا فهمت لا تعمل بما فهمت!!، وأن منابر مساجدها شاهدة زور على الوطن والتاريخ وتخون الله ورسوله، وتذكرت حادثة فضيلة الشيخ أحمد شاكر (يرحمه الله) عندما نافق أحد خطباء الجامع الأزهر الملك فؤاد بعد مقابلة له مع الدعى طه حسين وإصدار الأمر الملكى برعايته وزيادة راتبه

وتدبير مرافق له يصحبه فى تنقلاته والقراءة له على نفقة الجامعة، فقال خطيب الأزهر:

«قابل جلالة الملك فؤاد الدكتور طه حسين وشمله بالعطف الملكى الشريف، ولم يعبس، ولم يتولى .» .

بعد صلاة الجمعة قام فضيلة الشيخ أحمد شاكر (يرحمه الله) فى الناس خطيبا وقال:

«أيها الناس أعيدوا صلاتكم؛ فقد صليتم خلف إمام كافر.» .

.. وتحمل العالم الجليل فضيلة الشيخ أحمد شاكر (يرحمه الله) عاقبة موقفه، وانتهى الأمر بالرجل مكفوفا يكسب قوت يومه من حراسة نعال المصلين مقابل ما يجودون به عند باب المزينين بالجامع الأزهر، .. ولم يتخذ الأزهر ما يحفظ للعالم الجليل كرامته .. العالم الجليل الذى غضب لله ورسوله، وقال قولة حق فى مواجهة زلاقة لسان خطيب فاسد !!

طبق الملك فؤاد على الشيخ الجليل نفس العقوبة التى سنها جده محمد على باشا لعقوبة الراسبين من الطلاب الذين أُرسلوا فى بعثات علمية إلى أوربا؛ فانشغلوا بالملذات والشهوات ومطاردة العاهرات عن طلب العلم، وتوالت مرات رسوبهم وعادوا إلى الوطن صفر اليدين من كل شىء !!

ولما عرض أمر هؤلاء الراسبين على محمد على باشا أمر بأن يجلسوا يومياً وبلا انقطاع أمام الجامع الأزهر ليمسحوا نعال طلاب العلم ويحرسوها من بعد صلاة الفجر حتى بعد صلاة العصر لإشعارهم بالمهانة عقاباً لهم على تفريطهم فى طلب العلم، وجعلهم عبرة لمن تسول له نفسه من الطلاب أن يحذو حذوهم .

وتذكرت أيضا ما حدث لفضيلة الشيخ محمد المجدوب إمام وخطيب أحد المساجد الصغيرة المجاورة للجامع الأزهر عندما أبدى استياءه من دخول ضباط انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى المساجد وسط صخب العامة وفلاشات كاميرات مصورى الصحف .. وزاد من الأمر سوءا أن أحد القراء كان يقرأ من سورة النمل: «وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ»ـ النمل آية ٦ ـ .. وأخذ القارئ يعيد كلمة «ولكم فيها جمال» بقراءات مختلفة أكثر من عشر مرات، ولم يتوقف حتى أشار إليه البكباشى جمال عبد الناصر مبتسما بما يعنى إن رسالته قد وصلت!!

.. لم يعجب الأمر فضيلة الشيخ محمد المجدوب؛ فصعد المنبر، وأسهب فى نقده؛ فقُبض عليه وتم هتك عرضه فى محبسه؛ ليخرج بعد أيام من سجنه مشلولاً لا يكف عن البكاء حتى مات، ولم يفض بسره إلا للشيخ الباقورى الذى نقل ما حدث للشيخ الجليل للبكباشى جمال عبد

الناصر الذى علق قائلاً:

«هما عملوها الأشقياء .. أحسن عشان يبطل كلام .»

لم يحرك أحد من مشايخ السلطة والسلطان ساكناً أو ينبث ببنت شفة فى مدينة «البزرميط» !!.

الفصل الثانى:

.. الجامعة !!

.. وبدأت الدراسة فى آداب القاهرة فى الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧٢، فى اليوم الأول أنهيت إجراءات إقامتى فى المدينة الجامعية .. حيث تم إسكانى فى غرفة صغيرة وأنيقة .

وبدأت أنتظم فى حضور الدروس .. كانت الأحلام مخملية ناعمة وزاهية الألوان، وكان المحاضرون بعد كلمة ترحيب قصيرة بالانضمام إلى أسرة الجامعة، يحاولون التحليق بنا فى أجواء تقطع علاقاتنا بماضينا، وتضعنا على أعتاب مرحلة تحمل فى طياتها توهمات عن أجواء لا نهائية من علم جاد وصدق منجٍ وسحر شافٍ من أوجاعنا المزمنة.. كان المحاضرون من الجيل الثانى للأستاذة فى جامعة القاهرة .. ذلك الجيل الذى درس فى جامعات أوربا وأغلبهم من الذين تم تسويقهم إعلاميا مثل د. رشاد رشدى أستاذ الأدب الإنجليزى، ود. سهير القلماوى أستاذ الأدب العربى، ود. عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى، ود.سعيد عاشور أستاذ التاريخ الوسيط، ود. أحمد أبوزيد أستاذ اللغة اللاتينية .

وكانت الملاحظة الأولى على هؤلاء الأساتذة من الجيل الثانى من أساتذة جامعة القاهرة:

ـ أن أقدامهم لم تكن قد ترسخت بعد فى مجال البحث العلمى، فسقطوا فى شباك الترجمة عن الأوربيين؛ ووقعوا فى خطأ الترجمة والنقل غير الواعى، ولم يتثنَ لهم أن يشقوا لأنفسهم مناهج فى البحث تنافى المناهج العنصرية للاستشراق التى هيمنت على مناهج البحث فى آداب القاهرة وحذا حذوهم المستشرقون بالتبنى Affiliation ووكلاء الاستشراق من

طبقة العملاء Comprador الذين شكلوا الجيل الأول من المدرسين!!

وكانت الملاحظة الثانية على هؤلاء الأساتذة من الجيل الثانى من أساتذة جامعة القاهرة:

ـ أن هؤلاء الأساتذة من الجيل الثانى من أساتذة جامعة القاهرة لم يستطيعوا الخروج من أسر التقسيمات الأوربية للتاريخ؛ بما أوقعهم فى تناقضات وأخطاء تاريخية أضرت بقضايانا الوطنية، فقد استعمل د. سعيد عاشور مصطلح «صليبي» و «حملة صليبية» فى تناوله للحدث الذى درج أسلافهم على معالجتهم تحت مسمى « الفرنج» و«حركة الفرنج» .. ووجه الخطورة أنه عندما يستخدم فى اللغة العربية مصطلح «صليبي» و«حملة صليبية» فإنه يوحى بأن الحركة كانت دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية، ولا تضعها فى إطارها الصحيح باعتباره مغامرة استيطانية غاشمة، وأن استخدام هذا المصطلح يسيء إلى إخواننا النصارى الشرقيين الذين عانوا مثل إخوانهم المسلمين من وحشية الفرنج وعدوانهم.

.. والحقيقة أنه لم يحدث أن ظهرت كلمة صليبى فى نعوت الحملة، وكان من يشارك فى الحملة يوصفون بأنهم «حجاج» وكان يطلق على الحملة «رحلة الحج» .

وفى كتابات المؤرخين اللاتين الذين عاصروا تلك الحملة فى أطوارها الأولى قد خلت عناوين مؤلفاتهم من ذكر كلمة « الصليبيين» أو «الحملة الصليبية»، وإنما دارت حول «الحملة»، و«حجاج بيت المقدس»



.. وسكنت غرفة صغيرة وأنيقة بالمدينة الجامعية

و«حملات الفرنج»، وأن الكلمة الإنجليزية Crusade لم تستخدم سوى فى القرن الثامن عشر فقط ، وبعد أن كان البحث التاريخى فى تلك الحروب قد أمضى شوطاً طويلاً منذ بدأ توماس فوللر Tomas Fuller الإنجليزى فى القرن السابع عشر أول دراسة باللغة الإنجليزية القديمة حول حروب أوربا فى الشرق الإسلامى بعنوان: «تاريخ الحرب المقدسة History Of The Holy Ware»، ومن الملاحظ أنه استخدم عبارة «الحرب المقدسة».

تخلت الحكايات عن الحقيقة التاريخية لصالح التعويض النفسى لتلك الظاهرة التى كانت تمثل فى حينها حلماً من أحلام الفقراء، ولعل هذا ما جعل مؤرخا مثل نورمان كانتور يقرر أن الحادث الوحيد الذى يعرفه الخريج العادى من الجامعات الأمريكية فى العصور الوسطى هو «حملة الرعاع» التى بدأت أحداثها سنة ١٠٩٥ م والتى يرسم لها صورة براقة أخاذة، وهذا الموقف ينسحب على الفرد العادى فى الغرب.

.. وفى المراجع العربية التى تناولت تلك الحروب نجد أن المؤرخين المسلمين الذين عاصروها وكتبوا عنها مثل (ابن القلانسى وابن الأثير وابن العديم وابن واصل وابن شداد والعماد الأصفهانى والمقريزى وابن تغربردى وبدر الدين العينى وغيرهم) لم يستخدموا أبداً مصطلحات مثل «الصليبين» أو «الحملة الصليبية»، وإنما تكلموا عن تلك الغزوات بعبارات مثل «حركة الفرنج» لا يربطون بينها وبين المسيحية والصليب على أى نحو.

كما أن المؤرخ المسيحى وليم الصورى الذى ولد فى سنة ١١٣٠ بعد سنوات قليلة من انتهاء تلك الحروب والذى تحدث عنها فى مؤلفه بعنوان «تاريخ الأعمال التى تم إنجازها وراء البحار History Of Deed Done Beyond The Sea »، ولم يأت ذكر للعقيدة أو الصليب فى مؤلفه، وترجع أهمية مؤلف وليم الصورى لكونه مسيحياً، وأنه كان المشرف على ديوان الرسائل فى بلاط مملكة بيت المقدس، وسفيرا للملك عمورى فى بلاط امانويل امبراطور بيزنطة إلى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى صار رئيس أساقفة صور .

كانت الملاحظة الثالثة على هؤلاء الأساتذة من الجيل الثانى من أساتذة جامعة القاهرة:

هى محاولة إخفاء ما يعانونه من الانحطاط العلمى فى تجاويف حالة مرضية من الادعاء؛ فقد بدأ هؤلاء الأساتذة رحلتهم العلمية بعد فترة طويلة من توقف البحوث التاريخية فى العالم العربى بسبب التخلف والركود الثقافى؛ مما جعلهم أسرى للانبهار بالمناهج الأوربية بمختلف مدارسها!!

كانت د. سهير القلماوى تدرس لنا موضوعات متنافرة لا يربط بينها رابط يؤسس لبنية معرفية، فكان الجزء الأول يعنى بـ «صعاليك الشعراء»، والجزء الثانى يعنى بـ «أدب الخوارج»، والجزء الثالث يعنى بـ «تاريخ الرواية العربية» والتى ذهبت فيها لحد الشطط بادعاء أن جرجى زيدان مؤرخ الماسونية هو رائد فن الراوية واعتبرت رواياته

بعنوان : «روايات تاريخ الإسلام» باكورة الإبداع الروائى العربى، وقد رفضت د. سهير القلماوى مناقشة فرضية أن جرجى زيدان ليس المؤلف الحقيقى لتلك السلسلة من الروايات، وأن المؤلف الحقيقى لها هو الأستاذ عبد السلام شهاب. وكانت تصر على اول نموذج مكتمل للرواية العربية تمثل فى رواية: «زينب» التى كتبها محمد حسين هيكل فى العشرينيات من القرن العشرين .

وأغفلت د. سهير القلماوى باب المناقشة حول رواية سليم البستانى بعنوان: «الهيام فى جنان الشام» التى كتبها عام ١٨٧٠م التى تعد أول رواية عربية قلبًا وقالبًا، ورواية خليل أفندى الخورى بعنوان: « وى.. إذن لست بإفرنجي» من قبل رواية «زينب» بعقود قد تصل نصف القرن .

وعبرت د. سهير القلماوى بخفة ونعومة على الأشكال القديمة فى الأدب العربى التى تنطوى على بنية سردية يحكيها راوٍ، وقوامها الخيال مثل:

«كليلة ودمنة»، ثم «ألف ليلة وليلة» والتى كان موضوع أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه، و« المقامات»، و«رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى، و«حى بن يقظان» لابن طفيل .

كانت د. سهير القلماوى ترسخ لفكرة مشبوهة، وهى أن التحديث وكل ما يتصل به جاء مع الحضور الغربى إلى الشرق.



د. سهير القلماوي



د. رشاد رشدي

ولم يكن د. أحمد أبوزيد أستاذ الأدب واللغة اللاتينية بعيداً عن تلك المنظومة المضللة التى تبناها طه حسين فى كتابه: «مستقبل الثقافة فى مصر»، والتى ادعى فيه أن مصر أقرب إلى الثقافة الأوربية منها إلى ثقافة الشرق، وأن الأفضل لها الاندماج الثقافى فى كيان الغرب!!

كانت الحقيقة الغائبة عن عقلىّ كل من الدعى طه حسين، ود. أحمد أبوزيد أن الأوربيين لم يعرفوا شيئاً عن التراث اليونانى والرومانى إلا من الترجمات العربية للموروث الثقافى لتلك الحضارات، عبر المخطوطات التى وُجدت فى الأندلس والمكتشفات الأثرية المصرية، ومخطوطات عصر الإسكندرية خاصة بعد أن انقطع الأوربيون عن حقن تلك اللغات بماء الحياة والاقتصار على استخدامها فى خدمة القداس الكنائسى، ودراسة التوارة فى نسختها السبعينية!!

جعلنا أساتذتنا فى آداب القاهرة أسرى نظريات هم أنفسهم لم يفهموها بعد أن انتزعوا تلك النظريات من سياقها، ولم يعرفوا دوافع الغرب لترويجها.. فكل ما حصلوا عليه من بعثات الغرب لسان معوج .. وزهرة حمراء معلقة فى عروة الجاكت، ومنديل معطر فى كمه .. كنا نقلد أفعال د. رشاد رشدى، وندعى أنها الرقى!! .. ورحنا نردد وراءه وندعى الفهم أن: «العمل الفنى يعنى ما يعنيه، ويعالج ما يعالجه

The work of art means what it means and treats what it .«.treats



السهم يشير إلى الطالب ياسر بكر وهو يجري حوار مسجل مع الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد رئيس قسم الدراسات اليونانية واللاتينية حول: «مستقبل الثقافة في مصر».

ولم يكن ذلك سوى تلخيص نظرية «الحداثة Modernism»، وهى كلمة تعنى ما ليس له قديم وليس له ارتباط بجذور أو موروث، وهى تختلف كليا عن معنى «التحديث Update»، وهى تعنى تجديد القديم !!

والحداثة ثمرة للتنوير الغربى، وهى فى جوهرها قطيعة مع الموروث المعرفى، فالحداثة مشروع يبدأ بإقامة قطيعة معرفية وبالدرجة الأولى مع الموروث، وخاصة مع الموروث الدينى، لأن الحداثة تضع الطبيعة والتكنولوجيا محل الله.

ويصر الحداثيون على إيمانهم بفرضية شديدة السذاجة، وهى أن عملا فنيا قد يروق بطريقة ما للبشرية جمعاء مما يعنى كونه خاليا من الملابسات السياسية الباعثة على الانقسام !!

وهذا فى حد ذاته أمر شديد الإستحالة؛ لذا كان أدعياء الحداثة يعمدون إلى دمج حوارات فلسفية ونظرية فى ثنايا لغة ادبية منمقة، تجعل النص مفتوحاً لشتى أنواع التفسيرات الملتبسة؛ لذا كان موقف بعد الحداثيين المبدئى هو التشكك فى الادعاء بوجود أى نوع من التفسير الجامع الشامل.

كانت المحاضرات عن الحداثة والبنيوية ومقاربة النص وإنارة النص من داخله وإنارة النص من خارجه، وأن قراءة النص إعادة صياغة له وغيرها من البدع والخزعبلات التى أغرقت الكتابة فى العتمة، وأغرقتنا فى حالة من التيه والغموض المتعمد أو على الأصح «الغموض الإرهابي»،

فالنص شديد الغموض بما يصعب معه الإمساك بمعنى، وعندما كنا نفصح عن ذلك يتم وصمنا بالحمق وعدم الفهم وأن معارفنا قاصرة؛ لذا كان الغموض إرهاباً ، وكنا لا نتورع لبعض الوقت مع التماهى مع ذلك الإرهاب، بوصم أنفسنا بعدم الفهم ونعت ذواتنا بالغباء، كان البعض يصف ذلك بـ «تيه النص» الذى يحلو للبعض أن يطلق عليها: «إخصاء النص» أو «شخبطة اليانكى».. ، واليانكى وصف إنجليزى للأمريكى الحديث العهد بالثقافة والحضارة، والذى يفتقر إلى الموروث الثقافى والحضارى، ومع ذلك يصر على طرح النظريات التى تفتقد العقلانية والمنطق ومنها «الحداثة» التى روج لها «الحداثيون العرب» فى إطار البحث عن الذات بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ على خلفية رطانات لغوية مفادها أن المعانى ملكية خاصة لمن يفسرها!! .. ، وإنشاء مفهوم جديد للنص باعتباره تلاعباً حراً بالرموز داخل اللغة !!

وأخيرا ثبت زيف تلك الترهات وامتدت إليها معاول الهدم ممن صنعوها وطنطنوا لها؛ فكان فكر «ما بعد الحداثة» الذى هدم كل النظريات والمفاهيم التى أشاعها الحداثيون، ونادت بتفكيك النص، بمعنى أن النقاش المحورى فى التفكيكية يقوم على مبدأ السببية.. أى الرأى القائل بأن الحقيقة فى حد ذاتها نسبية؛ إذ تبنى دوما حسب وجهات النظر المختلفة وحسب النظم الفكرية التى استخدمت فى إعداد الشخص للحياة!!

كان الحداثيون فى مأزق، ومن هنا بدأت رحلتى الجديدة فى المعاناة والمشابهة لتلك الرحلة التى بدأتها مع «المعلمين الحفاة من أصحاب الياقات المتسخة» فى مدارس تلوانة، كان الفارق هو اختلاف المبانى وفخامتها

بين أروقة الجامعة .. اختلفت المبانى .. وبقيت نفس المعانى!!، وكان أساتذتنا فى آداب القاهرة من النخبة من السادة أعضاء «نادى الصفوة» من أصحاب «الياقات البيضاء» والجلود اللامعة المعطرة والهندام الأنيق ويحملون فوق أكتافهم ذات الرؤوس الفارغة، وتلك الأفكار العفنة والمعلومات المغلوطة للمعلمين الحفاة من أصحاب الياقات المتسخة!!

.. وبدأت أحس بحالة من الخيبة؛ فقد كنت آمل أن تحدث الدراسة الأكاديمية بآداب القاهرة بالنسبة لى نوعاً من المصالحة الفكرية تحقق لى حداً من التصالح مع الذات يخفف من حدة «ثقافة الشرخ»، والمقصود بـ «ثقافة الشرخ» هو التوتر المستمر بين الجذور الثقافية العربية عامة والثقافة الشعبية المتوارثة خاصة والثقافات الغربية التى تم الاتجاه إليها فى عصر التراجع والانحطاط المعرفى وغياب القدوة، وازداد الشرخ اتساعاً بما أصبح يهدد الهوية العربية .

.. لكنى كنت واهماُ؛ فقد ألقتنى تلك الدراسة فى مستنقع «ثقافة الكولونياليزم» .. فى البداية لابد من التوقف أمام «ثقافة الكولونياليزم» من حيث المصطلح، والمفهوم..

الكلمة الإنجليزية Colonialism اشتقاق من الفعل Colonize والمصدر Colonization تعنى فى قاموس أوكسفورد الانطلاق لتأسيس مستعمرة فى أراضى الآخر لتحقيق منافع اقتصادية، ولا يأتى ذكر فى القاموس عن عناصر الغصب والإكراه والوحشية وإهانة الكرامة الإنسانية والإبادة الجماعية والنهب المقترنة بالفعل، والإساءة إلى سكان تلك البلد

بدعاوى عنصرية من أنهم برابرة ومتخلفون، ولا يستطيعون استغلال موارد بلادهم؛ فجاء المستعمرون ليستغلوها بدلاً منهم ويأخذوا بأيديهم للارتقاء فى سلم الحضارة !!.. وهو منطق ينطوى على زيف أشبه بمنطق اللص الذى يسرق المحفظة لأن صاحبها لا يجيد استثمار نقوده !!

وفى مرحلة لاحقة عمل الاستعمار على ربط الدول المستعمرة بمركزه من خلال حركة ديناميكية، تقوم على التبعية الفكرية، والثقافية والاقتصادية للشعوب، والتى أوجدت تشوهات ثقافية طالت الأنا، والذات والثقافة، واللغة، فعلى سبيل المثال، نرى أن نظام التعليم فى عدد من الدول العربية يتبنى لغة المستعمر كلغة ثانية، فضلا عن التقسيم الجيوسياسى لمناطق كانت فى السابق عبارة عن تكتل جغرافى، وثقافى واجتماعى واحد، فالفصم لم يطل فقط الواقع السياسى، إنما شمل كامل البُنى، فاللغة والثقافة والحضارة للدول المستعمرة قد دخلت فى مرحلة يصعب رصدها!!

ويعرف البعض «ثقافة الكولونياليزم» أنها: «بمثابة المعرفة التى تستعمل من طرف المراكز الاستعمارية لإخضاع الشعوب المحتلة والمستعمرة، .. بمعنى تحول المعرفة إلى سلطة وقوة، بعد أن أصبح هذا الخطاب رديفا لكل القوى والمؤسسات التى تنشر وتبرر الفكر الاستعمارى».

وبعد الاستقلال الوطنى وجدت الدول التى كانت مستعمرة نفسها فى مأزق بعد أن أصبح هذا الخطاب جزءاً من «الثقافة الجمعية»، و«الدراسات الأكاديمية» لتلك الشعوب بعد أن ذاب فى الفكر الوطنى، فلدينا ـ فى مصر ـ كارثة حقيقية فقد لعب الاستشراق دورا هاماً فى ذلك، الأخطر من هذا أن

الأمر لم يتوقف عند «الاستشراق الأكاديمي» بل تعداه إلى «الاستشراق الأدبي».

وأشاع عملاء الاستعمار من Comprador الذين يعانون من «عقدة القابلية للاستعمار» أو يطلق عليهم د. إدوار سعيد «عبيد الأزمنة الحديثة» (أى المستعمَرين) القيم والمفاهيم الاستعمارية فى كتاباتهم للترويج للثقافة الكولونيالية، وهذا ليس شيئاً مُحدثاً بل ظاهرة لها جذورها التى يمكن رصدها، وبعد الاستقلال الوطنى ظلت ملامح تلك الثقافة قائمة فى كتابات العناصر الناقلة للعدوى من العملاء وخونة الأوطان من الخلايا النشطة أو الخلايا النائمة، ومن يأخذ عنهم بقصد أو بجهل !!

لم تكن كتابات الطهطاوى فى القرن قبل الماضى سوى ترويج فج لأفكار السان سيمون الفرنسيين وفق رؤى توفيقية تلفيقية بين ما هو أوربى وما هو إسلامى، وسارت فى نفس المضمار كتابات قاسم أمين .. وكان تجديد الخطاب الذى ادعاه محمد عبده صديق اللورد كرومر مسكونا بروح الآخر الأوربى .. ويدعو إلى الدهشة أكثر من كونه خطابا مجدداً يجب التوقف حياله، وإمعان الفكر فى مفرداته ومعانيه؛ فمحمد عبده الملقب بالإمام «بتعريف الألف واللام» يقول عن الجن فى القرآن: «ليس هناك جن والمقصود بها شرور النفس وسيئات الأعمال والأفكار الشريرة»، ويقول عن «الطير الأبابيل والحجارة من سجيل» إنها مرض الجدرى أو الحصبة، وردد عن الشخصيات التاريخية فى القرآن ما سبق أن افتراه مرجليوث، ونقله عنه طه حسين فيما بعد من أنها ليست سوى تمثيلات وليس لها وجود تاريخي!!، ولم يكن محمد عبده سوى أحد كوادر الماسونية

التى تربت على أيدى جمال الدين الأسدبادى (نسبة إلى أسدباد إحدى مدن إيران)، والمعروف كذباً بجمال الدين الأفغانى وهى مدرسة تدعو إلى: «إفراغ الدين من مضامينه مع الاحتفاظ بلافتة مسماة فقط» عبر التأويلات الفاسدة التى يضعها المؤولون وتتبنى تفسيرات للنص تختلف عما جاء فى أسباب نزوله.. وخلط الدين بالتراث والأساطير!!».

واستمرت تلك المحاولات على مختلف المناحى للترويج لسلوكيات وأخلاقيات مسكونة بروح الآخر وفكره، وتكون غايتها تشكيل المجتمعات المحلية بما يقلل من الاختلاف بين الجماعات والمجتمعات والتى كانت البداية التاريخية لفكرة «العولمة» عبر ما يسمى بـ «بوتقة الصهر».. فترجم جلاد دنشواى أحمد فتحى زغلول باشا كتاب أدمون ديمولان بعنوان: « سر تقدم الإنجليز السكسونيين» سنة ١٨٩٩ ، وكان يدعو إلى انفصال مصر عن ماضيها، والانضمام إلى أوربا، ولم يكذب محمد أفندى عمر من مستخدمى مصلحة البوستة المصرية الخبر، فألف كتاباً على ذلك النهج فى سنة ١٩٠٥ أسماه: «حاضر المصريين أو سر تأخرهم» وضع فيه نقيض كل ما جاء بالكتاب السابق، وجعله سبباً فى تأخر البلاد، وتخلف العباد، وصدره بإهداء إلى مصطفى باشا فهمى رجل الإنجليز فى مصر، وقدمه له مترجم الكتاب الأول أحمد فتحى زغلول باشا.

وسار على النهج حافظ عفيفى باشا فى كتاب بعنوان: «الإنجليز فى بلادهم»، وتشكلت جمعيات كثيرة من أجل هذا الغرض بعضها معلن مثل «جمعية الصداقة المصرية الإنجليزية» وبعضها سرى مثل «جماعة إخوان الحرية»، وهى جماعة أنشئت فى الأربعينيات من القرن الماضى

من بعض المثقفين المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وكان هدف هذه الجماعة نشر الدعاية للإنجليز فى صفوف الرأى العام، فلما غربت شمس الإنجليز وبزغ نجم الأمريكان، كان لا بد من عملاء جدد وعناصر ناقلة للعدوى بموصفات جديدة تم إعدادها فى مخابر ومخابرات الأمريكان، فتم تجنيد صحفيين مصريين لترويج النموذج الأمريكى (الإخوة أبو الفتح أصحاب جريدة «المصري» ـ أبو الخير نجيب صاحب جريدة «الجمهور المصري» ـ إحسان عبد القدوس صاحب مجلة «روز اليوسف»، والذين تم الاكتفاء بما قدموه من تشويه العهد السابق، وإحلال بدلاً منهم جيل آخر من الصحفيين المصريين بمواصفات مختلفة، أبرزهم محمد حسنين هيكل والأخوان أمين (على ومصطفى أمين) وقد تم تمويل إنشاء مؤسسة أخبار اليوم وإصدار باكورة أعمال الدعاية للأمريكان بكتاب مصطفى أمين بعنوان: «أمريكا الضاحكة»، وتشكلت جماعات أخرى من الصحفيين والكتاب والأكاديميين عملت بتوجيه من «منظمة الحرية الثقافية» إحدى حظائر C.I.A. والتى تدفع لمن يعزف اللحن الذى يطربها ويحقق أهدافها، وهو ما أفاضت فى تفاصيله الكاتبة الإنجليزية فرانسيس ستونر ستون فى كتابها بعنوان: «**من الذى دفع للزمار .. المخابرات الأمريكية فى الحرب الباردة الثقافية ؟!**

Who paid The Piper ?!! C.I.A and Cultural Cold «War

من أجل كسب النخبة الثقافية الآوربية لحساب «الطرح الأمريكى» أو لحساب «الأسلوب الأمريكى» لتحقيق «القرن الأمريكى» .

اللافت للنظر أن معارف مثل فقه اللغة ووضع المعاجم والتاريخ والبيلوجيا شاركت فى خدمة الرؤية الاستشراقية للعالم، والمسألة لم تتوقف عند «الاستشراق الأكاديمي» بل تعدته إلى «الاستشراق الأدبي» المرتبط بكتّاب ورحالة، وهو ما حاول الكتاب فى العالم العربى تقليده حذو القدم بالقدم دون مرعاة لما يحمله من توجهات؛ ففى مصر لا تخلو مؤلفات كبار الكتاب مثل العقاد وطه حسين وإحسان عبد القدوس وصلاح جاهين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم من فكر الكولونيالزم .

.. وقد راعينا فى فهم تلك الظاهرة ألا نسقط فى خطأ بول جونسون فى كتابه بعنوان: «المثقفون» ؛ لكون السياسة قد لعبت دورا فى توجهات كتابه، وتحوله الأيديولوجى من اليسار المعتدل حول حزب العمال البريطانى (حين كان يتواجد فى بريطانيا)، وتحوله إلى حزب المحافظين الجمهوريين الجدد (بعد العيش فى أمريكا) خاصة أن ما يسرده جونسون فى كتابه ليس تاريخاً وليس بحثاً علمياً بل اجتهادات خرافية وأقنعة أيديولوجية ونشاط خيالى مفرط، لا يعانى من مشكلة أخرى سوى الافتقار إلى المنطق السليم أو المنهج الأكاديمي؛ فقد كان هدف جونسون إثبات أن أصحاب الأفكار التى أثرت فى مسيرة القرن العشرين وأحدثت تحولات كبيرة فى المسيرة الإنسانية، ليسوا سوى أفاقين وانتهازيين وكذابين وشهوانيين ومرتزقة.

وحتى لا نسقط فى خطأ بول جونسون سنكتفى بانتقاد العمل دون مساس بشخص كاتبه؛ ونبدأ بكتاب طه حسين بعنوان: «فى الشعر الجاهلي»، والتى قال فيها إن حادثة إبراهيم وإسماعيل التى وردت فى القرآن لا يعول

عليها تاريخياً أو التسليم بها .. وكانت دوافع طه حسين سياسية فى خدمة المشروع الصهيونى، وليست علمية.

كان طه حسين يلقى محاضرات بالجامعة بعنوان:«مناقشة القرآن من الوجهة الأدبية»، ويشجع طلابه على انتقاد النص القرآنى وبيان أوجه القصور والنقصان فيه، وهو الرساب الذى لم يستطع الحصول على أى إجازة علمية من أى مؤسسة علمية معتمدة مصرية أو غير مصرية !!

ولم يقتصر الأمر على هذا بل أشرف طه حسين على رسالة دكتوراه لطالب يهودى يدعى إسرائيل ولفنسون عن أطروحة بعنوان: «دور اليهود فى جزيرة العرب خلال الجاهلية وصدر الإسلام» ، وهو ما يكشف عن هوس طه حسين بإضفاء على اليهود ما ليس لهم، وهو ما يجعل من الأكاذيب اليهودية حقائق من خلال الترويج لها فى بحوث جامعية محكمة!!، .. وذلك مكمن الخطورة .

فى نوفمبر ١٩٤٥ أصدر الصهاينة من آل هرارى مجلة «الكاتب»، ووضعوا على رأسها طه حسين العائد لتوه من زيارة الجامعة العبرية، والذى بدأ الترويج للدعايات الصهيونية؛ فقد كتب فى تلك المجلة فى عددها الثالث الصادر فى يونيو ١٩٤٦ مقالاً يصف فيه رحلة قام بها من القاهرة إلى بيروت، فيقدم وصفاً مثيراً للشفقة على ضعاف المهاجرين اليهود من الشيوخ والأطفال والنساء الذين كانوا يستقلون سفينة فى طريقهم إلى فلسطين!!

كان طه حسين يكتب خداعاً للقارئ المصرى، بينما كان بناء الدولة الصهيونية على حدود مصر قد دخل مرحلته الأخيرة، وقد كشفت الوكالة اليهودية زيف كتابات طه حسين من خلال إعلان مدفوع نشرته مجلة «المصور» بعنوان: «٧٥٠٠٠ يهودى يهاجرون رغم أنف السلطات الفلسطينية».

ولم يكذّب عباس محمود العقاد الخبر؛ فأسرع يقتسم نصيبه من الكعكة؛ فإذا كان طه حسين يمارس المهمة المشبوهة من على منبر الجامعة، فلا بأس من ممارسته من خلال الصحف و «صالون العقاد»؛ فمارس أبشع أشكال العمالة للمحتل بزعم محاربة الشيوعية؛ فسلسلة «العبقريات» المشهورة على سبيل المثال، والتى بدأت بعبقرية محمد عام ١٩٤٢ كان بتوجيهات الإنجليز .. فقد كتب العقاد سلسلة «العبقريات» من داخل السفارة البريطانية بقصر الدوبارة، التى وفرت له عملا فى إذاعة الشرق لنصرة الحلفاء، وانتهى به الحال إلى العمل بمؤسسة فرانكلين الأمريكية .. وكان أخطر ما ألصقه العقاد بمقام النبوة هى صفة العبقرية، وكأن ما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليس وحياً يوحى، وليس تنزيلاً من لدن عزيز حكيم .. وإنما إبداع ذاتى أو ابتكار أو فكر شخصى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . وخاصة أنه ليس للعبقرية معنى فى اللغة بمعزل عن فكر وثقافة الخرافة، التى تعتقد بشياطين الشعراء ساكنى وادى الجن المسمى بـ «وادى عبقر»، وقد تم توظيفها اصطلاحياً فى اللغة بمعنى: « قوة الخلق والإبداع عند الشاعر أو الفنان أو الأديب أو العالم»، وهو ما لا يمت لمقام النبوة بصلة، ومرادفها فى الإنجليزية Genius وهى كلمة

لاتينية مشتقة من الكلمة العربية: «الجن»، وقد تم توظيفها اصطلاحياً وتعنى حاد الذكاء خارق الموهبة .

.. ونعت العقاد للنبى محمد صلى الله عليه وسلم بالعبقرية ينطوى على حالة من الخبث تباعد بينه وبين مقام النبوة، وهو نعت يتوافق تماماً مع الفكر الغربى الاستشراقى والمشارقى الذى يصف النبى بأوصاف لا تليق، ويصنف الإسلام تحت ما يسمى بالأديان الطبيعية أى بشرية المنشأ والمصدر والتعاليم، ويساوى بينه وبين البوذية والزرادشتية والكونفوشيسية، كان الأخطر فى سلسلة «العبقريات» أن العقاد ساوى بين النبى صلى الله عليه وسلم فيما قال عنه إنه «العبقرية» بين النبى صلى الله عليه وسلم وبعض خلفائه وبعض قواده، وهو مغزى مقصود!!.

وقد حذا توفيق الحكيم حذو العقاد فى كتابه بعنوان: «شجرة الحكم»، وذهب فيه إلى أن النبوة صنعة وحرفة، وليست اصطفاء إلهياً وتكليفاً ربانياً لشخص النبى لنقل رسالة السماء لأهل الأرض، وقد صدر هذا الكتاب فى سنة ١٩٣٩ فى نفس السنة التى صدر فيها كتاب طه حسين بعنوان «مستقبل الثقافة فى مصر»!!

فى كل الأحوال لم تكن الجامعة المصرية «المصنوعة» لغير الأسباب المعلنة لقيامها بعيداً عن تلك المهمة، بل كانت إحدى أهم أدواتها التى تم إنشاؤها من أجلها !!

فى البداية كانت بعثات الجامعة تعود إلى الوطن بكل ما يحمل شذوذ

الغرب وعنصريته، وقد تصدى الرأى العام لبعض الأفكار المارقة التى أنكرت المعلوم من صحيح الدين التى وردت فى أطروحة المبعوث منصور فهمى لنيل درجة الدكتوراه من السربون سنة ١٩١٣ عن «أحوال المرأة فى الإسلام»، والتى استطاع المشرف عليها أن يقنعه بما يخالف الشريعة الإسلامية ما تسبب فى ثورة الرأى العام احتجاجاً على ترويج الإلحاد القراح، وارتأت الجامعة الوليدة للخروج من مأزقها اتخاذ قرار بضرورة عرض الرسائل العلمية على مجلس الجامعة قبل مناقشتها، واكتفت بطرد منصور فهمى من الجامعة، ولم يعد إليها إلا بعد ثورة ١٩١٩، عاش بعدها منصور فهمى حياة تافهة حتى توفى فى سنة ١٩٥٩، ولم يقدم سوى كتيب صغير بعنوان: «خطرات نفس» احتوى على عدة مقالات عن آرائه الشخصية، ولا تحمل فكراً أكاديميا مبحوثاً، ومحكماً !!

الرسالة موجودة حتى الآن فى مكتبة السربون، وقد ترجمتها عن النص الفرنسى المترجمة الفلسطينية رُفيدة مقدادى، وحاولت السيدة سداد منصور فهمى ابنة منصور فهمى نشر تلك الرسالة لكنها لم تحظ بقبول ناشر عربى !!

فى سنة ١٩٤٧ اضطرت الجامعة للانحناء للعاصفة التى أثارتها الممارسات الفجة والشاذة للشيخ أمين الخولى بصفته مشرفاً على أطروحة تلميذه محمد أحمد خلف لنيل درجة الدكتوراه بعنوان:»الفن القصصى فى القرآن الكريم»، كانت الأطروحة قوامها كما لخصه محمد أحمد خلف فى مقدمة أطروحته:

«إن العمل فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ، والواقع أن محمدا فنان بهذا المعنى» .

قامت إدارة الجامعة برفض رسالة الدكتوراه المقدمة من الطالب محمد أحمد خلف ومنع المشرف عليها الشيخ أمين الخولى من الإشراف على الرسائل الجامعية فى الدراسات الدينية .

لم يأتِ الشيخ أمين الخولى شيئاً من عندياته فقد كان ترديداً أبله لترهات طه حسين التى أخذها عن مرجليوث وسنتلانا ونولدكه، والتى رددها من قبل طه حسين الشيخ محمد عبده عن القصص القرآنى واعتباره مجرد تمثيلات ليس لها محل من الواقع وحوادث التاريخ !!

كان الشيخ أمين الخولى فى زيه الأزهرى أضحوكة المحافل بعد هذا العزل والتهميش وإصراره على أفكاره الهزلية التى لم يستطع إقامة دليل علمى عليها، ومنها أن أبا حنيفة لم يثبت عنده غير ١٧ حديثاً وهو ما ذكره ابن خلدون بصيغة التضعيف، وقد اضطرت إدارة الجامعة إلى عزله نتيجة لنشاط جماعة «الإخوان المسلمين» فى أوساط الطلاب، وبعد موته ظلت السخرية تلاحق ذكراه !!؛ مما حدا بحفيدته د. يمنى طريف أمين الخولى إلى محاولة غسل سمعة جدها من خلال أطروحتها بعنوان:«أمين الخولى والأبعاد الفلسفية للتجديد»!!

وبعد أمين الخولى، قاد د. عبد العزيز الأهوانى إنشاء امتداد لذلك التوجه الشاذ فى الدراسات القرآنية كان من نتاجه د. جابر عصفور، د.نصر

أبو زيد، كان الرئيس جمال عبد الناصر قد أقال د. عبد العزيز الأهوانى من الجامعة، وبعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر تم الاستعانة بالأهوانى للتدريس بكلية الآداب بالمكافأة، وقد وافق د. حسين نصار رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالمخالفة للقانون فى سنة ١٩٧٣ بإشراف د. الأهوانى على رسالة الماجستير المقدمة من نصر أبو زيد المعيد بقسم اللغة العربية بعنوان: «قضية المجاز فى القرآن عند المعتزلة».

وسار د. أبو زيد فى ذات الاتجاه فى الهجوم على النص القرأني؛ فكان موضوع أطروحته لنيل درجة الدكتوراه بعنوان: «فلسفة التأويل (دراسة فى تأويل القرآن عند محيى الدين بن عربي) ونال عنها الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف بدعم من ملاحدة القسم !!

وفى سنة ١٩٩٢ وقعت الواقعة عندما تقدم د . نصر حامد أبو زيد ببحث للترقية إلى درجة أستاذ بعنوان: «الإمام الشافعى، وتأثيث الأيديولوجية الوسطية» تضمن العداوة الشديدة لنصوص القرآن والسنة والدعوة لرفضهما .

تمثلت مطاعن لجنة مناقشة البحث فى أربعة محاور:

أولا: أن أبو زيد دعا إلى الثورة الفورية على القرآن والسنة، لأنها كما قال:

«نصوص دينية تكبل الإنسان وتلغى فعاليته وتهدد خبرته، ويدعو

إلى التحرر من سلطة النصوص، بل من كل سلطة تعوق مسيرة التنمية فى عالمنا.».

ثانيا: يقول عن القرآن إنه منتج ثقافى تشكل على مدى ٢٣ عامًا، وإنه ينتمى إلى ثقافة البشر، وإن القرآن هو الذى سمى نفسه، وهو بهذا ينتسب إلى الثقافة التى تشكل منها.

ثالثا: قرر أبو زيد بتفكيره الخاص أن الإسلام دين عربى، وأنه كدين ليس له مفهوم موضوعى محدد.

رابعا: هجم فى أبحاثه على الغيب، فجعل العقل المؤمن بالغيب هو عقل غارق بالخرافة والأسطورة، مع أن الغيب أساس الإيمان.

ودافع د . نصر حامد أبو زيد عن أطروحته بأن الأطروحة ليست دراسة فى فقه الإمام الشافعى من منظور علم الفقه، وإنما هى دراسة فى «نظرية المعرفة» كما يطرحها فكر الشافعى من خلال علم الفقه الذى «أصّله» الشافعى ليس موضوع الكتاب، بل الموضوع هو «الأصول» النظرية التى أقام عليها الشافعى وسائله الاستدلالية وإجراءاته المنهجية، وأكد أنه ليس المقصود «الأصول» التشريعية أو الفقهية التى يستنبط منها الأحكام، وإنما المقصود رصد «آليات» التأصيل ذاتها من حيث هى عملية ـ أو عمليات ـ ذهنية، إنها دراسة فى «المنهج» بمعناه الفلسفى، وهو «منهج» لم يطرحه الشافعى طرحا مباشراً، وإنما نجده مبثوثاً بطريقة «ضمنية» فى كل كتاباته، ومحاولة الكشف عن تلك الآليات يعتمد على



السهم يشير إلى الطالب ياسر بكر في حوار مع الأستاذ نصر حامد أبو زيد المعيد بقسم اللغة العربية في حوار حول « سلطة النص» و « فلسفة التأويل»

مجموعة من المسلمات التى تحدد منهجية القراءة الكاشفة.

وهو دفع ما لم يصادف قبولا من لجنة التقييم؛ فتعرض د . نصر حامد أبو زيد لوقف الترقية، ولم يصادف قبولا من المحكمة؛ فتم تكفيره، والتفريق عن زوجته د.ابتهال غيث الأستاذ بقسم اللغة الفرنسية .

ظُلم د . نصر حامد أبو زيد ظلماً بيناً فى أمر هام غلبت فيه سوء النية وهو نقل المساجلات العلمية حول أطروحته من مدرجات الجامعة إلى منابر الوعظ فى المساجد وصار الخطباء يكيلون الاتهامات لـ «د . نصر حامد أبو زيد» دون أن يقرأوا حرفاً مما كتب؛ بما جعل حياته فى دائرة الخطر، ولم يجد بداً من مغادرة البلاد حتى لقى وجه خالقه .

***

لم تكن تلك الرؤى الاستشراقية من المستشرقين الغربيين وعملائهم من المنتمين زوراً إلى الإسلام مأزق كلية الآداب ـ جامعة القاهرة وحدها، بل مأزق المثقفين الوطنيين فى الدول حديثة العهد بالاستقلال، الذين أخذوا يبحثون فى «المأزق الجديد» الذى أخذت بلدانهم تتخبط فيه بعد خروجها من «تجربة الاستعمار» سواء بوجود ثقافة استعمارية مازالت مسيطرة ومهيمنة، أو بذوبان تلك الثقافة الاستعمارية فى ثقافات بلدانهم، وأصبح بعضها من المسلمات الشائعة فى الفكر السائد، أو معاناة استهدافهم من جهات استعمارية اتخذت للاستعمار أشكالاً وأساليب جديدة، ومن ثم نشأ فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى مصطلح «ما بعد الاستعمار

Post Colonialism» كمصطلح سياسى يعني: «فك ومقاومة وتصفية الاستعمار» مع التركيز على مفهوم «المقاومة» ـ حسب رؤية د. إدوارد سعيد الرائد الأكاديمى فى هذا المجال ـ بما لا يعنى مجرد «ردة الفعل» تقتضى الاتكاء على «التراث» بل على نهج بديل فى تصور التاريخ البشرى .. لكن المأزق أن أحداً لم يتصدَ لتحديد سمات « ثقافة ما بعد الاستعمار Post Colonialism» من حيث بدايتها ؟! وكيف نشأت ؟!، وكيف تكونت ؟! وما مكوناتها ؟! وما مدى صلابتها؟! .

يعرف قاموس أكسفورد للعلوم الاجتماعية خطاب ما بعد الكولونيالية بـ: «نشأ خطاب ما بعد الكولونيالية فى أعمال جماعة دراسات التابع SubAltern Studies القائمة على التاريخ الهندى، متأثرين بأعمال التقاليد الماركسية الإنجليزية، لتدوين التاريخ، والتى ترفع شعار «التأريخ بلسان الشعب»، وكانوا مهتمين للتعبير عن المستعمرين (الذين وقع عليهم الاستعمار) من حيث الثقافات والسياسات والممارسات أكثر من تبنى، وجهة نظر المستعمر (الذى قام بالاستعمار) وسلطتهم.

.. والتابع هنا كل ما دون النخبة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع.

وكان الهدف من الخطاب، كما يشير القاموس إيصال صوت المضطهدين فى خطاب هيمن عليه المستعمِر.

تكمن خطورة الأمر فى مصر فى الجانب الاستشراقي؛ فالاستشراق ليس نسق معرفة فقط، ولكنه ينطوى على وجود نظرى وعملى يتدخل

فى إعادة توزيع ورسم الحدود وفرض السياسات .. ومن ثم فهو أسلوب للهيمنة والسيطرة وإعادة البنية .. المهم فى هذا الجانب هو « الخطاب» أو «أسلوب الخطاب»، وهذا قرين «نظام الهيمنة الذى يتأسس على «إساءة التمثيل» الناجمة عن «عمليات التخيل والقولية»، وهو ما ينعته د. إدوار سعيد فى كتابه «الثقافة والإمبريالية» بـ «الذبح البلاغي» أو «استنزاف وتجريف قلاع البلاغة» لنعت وترويج قيم كاذبة وخادعة وزائفة !! فعن طريق الخطاب استعمر الغرب الشرق واستطاعت أوربا فرض خطابها فى سياق إخضاعها لثلاثة أرباع البشر الذين يقطنون العالم الراهن .

***

كان كل شيء فى آداب القاهرة مُعدا ومصمما وجاهزا لغسيل عقولنا وتطويعنا لتقبل أفكار ضد اهتماماتنا وتوجهاتنا .. ومن يسهل تطويعه تُفتح له الأبواب ويُقدم له العون، ومن يعتصم بثقافة المقاومة، ويحتفظ بحقه المشروع فى الفهم، ويمارس إرادة الممانعة يجد نفسه مطروداً من دائرة الحصول على فرصة حقيقية للترقى العلمى، وما يستتبعه من ترقٍ اجتماعى !!

كانت انحيازاتى الثقافية قد تبلورت، وتلخصت فى أن الغرب قد يكون متقدماً، ولكنه ليس متحضراً من خلال المقارنة بين معايير القيمة والتقدم؛ فليس مقبولاً أن نأخذ المخدرات مع الكمبيوتر، وفلسفات الحرية

والعبثية واللذة والعدمية والعرى مع وسائل الانتقال السريعة !!

واتسعت دوائر مناقشاتنا عن سمات المشروع الحضارى العربى، وأنه لابد من البحث عن نسق حضارى إسلامى عربى يعبر عن هويتنا وينطلق بها نحو المستقبل، وبدأ أساتذتنا يضيقون بنا، وسرعان ما وصلتنى رسالة واضحة عندما تم إنقاصى عن عمد درجتين عن درجات تقدير جيد جدا .. فهمت مضمون تلك الرسالة وأدركت أن العناد لن يفيد ولم أرغب فيه ، وتخرجت في قسم الدراسات اليونانية واللاتينية عملة بائرة لا تساوى شيئاً فى سوق العمل، .. وكان لابد من تغيير المسار .

كان المناخ فى آداب القاهرة محكوما بآليات ما أطلق عليه فى الأدبيات الفرنسية: « التسمم السياسى Intoxication»:

صور وأشكال التسمم السياسي:

وتتخذ عملية التسمم السياسى عدة صور وأشكال منها:

١ ـ التطبيع:

بمعنى إقناع الطرف الآخر بالتحول عن العداوة التقليدية، والصراع

المصيرى إلى حالة التعايش الطبيعي؛ بانتزاع إرادة المقاومة من العقول وبالتالى انتزاع الأسلحة من الأيدى، والاستسلام لمرحلة الاسترخاء وقبول الأمر الواقع ، وكان المستهدف ذلك القطيع من الطلاب الذى حصر رسالة الجامعة فى تلقينهم المعارف، ليتم توظيفهم فى معلمين فى مدارس الدولة.

٢ ـ التطويع:

ويكون فى الأغلب منحصراً فى الشخصيات التى تعمل فى مجال الفكر والثقافة أو الشخصيات الواعدة فى هذا المجال، هو تغير مسار الإرادة من طريقها الطبيعى والأصيل إلى طريق آخر، إذ يروضها القائم بعملية التسمم، فتبدو داعية لمفاهيم ومدركات أجنبية، وفى ذات الوقت تتولى أداة دعاية القائم بعملية التسمم بتضخيم دور تلك الشخصيات، وإكسابها الشرعية فى التسلل إلى باقى الجسد .

٣ ـ الاغتراب:

أى جعل الفرد مغترباً عن مجتمعه والثقافة التى يعيشها، ودفعه إلى اتخاذ موقف غير ودى منها، وتبعا لذلك فالتسمم يعمل على خلق حالة من الصراع بين الذات الفردية ومحيطها الاجتماعى والثقافى .

٤ ـ التفجير:

وهو صورة من صور فك الأواصر بين عناصر الجسد وبعثرتها، بحيث يبدو كل عنصر عاجزاً عن أداء وظائفه الطبيعية بشكل كامل، وإزاء هذا النقص يأتى دور القائم بعملية التسمم فى الظهور بدور المحسن الذى يقدم خدماته للجسد المريض بجرعات محسوبة .

٥ ـ الاحتواء:

إذ يأخذ الجسد السياسى والفكرى بعد تمزيق أوصاله إلى التبعية الشاملة للأجنبى أى باستيعابه كلياً .

حرب أكتوبر:

فى بداية العام الدراسى الثانى ويوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ عبر الجيش المصرى قناة السويس إلى الشرق فى مفاجأة أذهلت العالم .. هذا حقيقى .. ولكننا أيضا لا نستطيع أن ننكر أن الجيش الإسرائيلى عبر ذات القناة إلى الغرب فى ليلة ١٥ أكتوبر وحاصر مدينة السويس واحتل ميناء الأدبية، وقطع طرق الإمداد عن الجيش الثالث الميدانى وأصبح الطريق أمامه

مفتوحاً إلى القاهرة والقطامية ووادى حوف .

ومع ذلك أمرت جولدا مائير بتشكيل لجنة فى أواخر نوفمبر ٧٣ قبل انقضاء أسابيع قليلة على وقف إطلاق النار برئاسة القاضى شمعون أجرانات لمعرفة أسباب التقصير الذى تم؟! ومن المتسبب فيه؟ وما العيوب الكائنة فى الجيش التى أدت إلى اهتزاز الموقف فى الأيام الأولى من بداية الحرب .. بينما نحن لم نكلف أنفسنا أن نتوقف لحظة لنسأل كيف تآكلت لدينا فرص المبادرة والمفاجأة التى بدأنا بها القتال؟ وكيف تمت الثغرة ؟! وما سر الجسر المُسفلت بطول كيلو متر وقاعدة ٥٠ مترا وعمق ٣٠ مترا أى بعمق القناة .. وكيف تم إعداده فى أقل من ٢٤ ساعة لتعبر عليه القوات الإسرائيلية!!

وعندما جرؤ الأستاذ يوسف إدريس على طرح تلك التساؤلات فى سبعة مقالات نشرت بجريدة القبس، وتم إصدارها لاحقاً فى كتاب بعنوان: «البحث عن السادات» ، تصدى رئيس الدولة آنذاك للكاتب الكبير فى خطاب علنى اتهمه فيه بأنه كتب تلك المقالات لإرضاء الرئيس القذافى الذى دفع له عنها خمسة آلاف دولار !! .. ولم يجد الكاتب الكبير صحيفة واحدة تنشر له رداً على هذا الافتراء؛ فذهب إلى مكتب النائب العام ليقدم بلاغاً فى نفسه، ويطلب التحقيق معه فيما نسبه إليه حسنى مبارك رئيس الجمهورية، واعتذر النائب العام متعللاً بضوابط تقديم البلاغات، فإما أن يأتى المواطن إلى النيابة للاعتراف بجريمة فيتم إعمال مواد القانون حياله، أما أن يأتى لتقديم بلاغ فى حق نفسه بهدف نفى اتهام عنه فهو غير جائز لكونه فى الأصل بريئاً .

كانت الأغانى تمثل درباً من التعويض النفسى للجماهير عما لم تحققه القوات فى ميدان القتال وخاصة أن كسر إرادة العدو وإلقاءه فى البحر كانت أمنية وطموحاُ راسخاً فى الوجدان الشعبى صنعته دعاية الدولة وانبثقت صوره فى كثير من صور التعبير الشعبى..

ولم تقدم كتابات القادة الميدانيين بما فيها من تناقضات وادعاءات صورة حقيقية عن تلك الحرب .. وقد قرأت معظمها إن لم تكن كلها تقريباً (ما كتبه الرئيس السادات وما كتب بإيعاز وإملاء منه، وما كتب منسوبا إلى المشير أحمد إسماعيل بعد وفاته بسنوات، وما كتبه الفريق سعد الدين الشاذلى وحوكم عسكرياً من جرائه، وما كتبه اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى، وما كتب منسوبا إلى الفريق حسنى مبارك ونشر بعد خلعه .. وآخرون قد لا يتسع المجال هنا لذكرهم خاصة أن ما كتبوه لا يمثل إضافة معلوماتية بقدر ما يمثل إثبات حالة: «أنه كان هناك» !!

والحقيقة أن ما كتبه اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث يمثل حالة فريدة من الصدق، وتعد من أكثر الشهادات وضوحاً لكن يقلل منها أنها تعد مرافعة سابقة التجهيز عن الذات أمام محكمة التاريخ.

.. يقول واصل فى كتابه بعنوان: «الصراع العربى الإسرائيلى» عن حوار دار بينه وبين المشير أحمد اسماعيل القائد العام للجيش فى حرب أكتوبر:

«وتم استدعائى إلى مركز القيادة؛ لبحث أسلوب إمداد القوات

المحاصرة فى رأس الكوبرى شرق القناة، واقترح الفريق أول أحمد إسماعيل دفع ١٥٠ جملا إلى قوات الشرق، فقلت له: «إن هذا غير ممكن، فماذا يمكن أن تحمله قافلة من ١٥٠ جملا، وكيف تصل والعدو يسيطر على طريق السويس؟ » ؛ فاقترح أن يكون الإمداد عبر الوديان والدروب فى جبل عتاقة، فقلت له: «إن هذا غير ممكن حيث إن القوات الإسرائيلية تسيطر على كافة القطاعات من الأدبية حتى منطقة نفيشة فى جنوب الإسماعيلية».

وتطورت الفكرة إلى دفع قول مجنزر يحمل الإمدادات إلى القوات المحاصرة على أن تقوم الفرقة ٤ مدرعة بحمايته، فقلت له: «وهذا أيضا غير ممكن حيث سيتم اكتشافه بسهولة وتدميره أو الاستيلاء عليه»، وهنا احتد الوزير وقال: «هو أنا كل ما أقول لك حاجة تقول لى ما ينفعش»، فقلت له: «أنا مستعد لتنفيذ أى مهمة، ولكن يجب أن تكون مهمة صحيحة، ولا تتسبب فى مزيد من التدمير لقواتنا».

.. ويقول أمين هويدى ساخراً فى كتابه بعنوان: «**الفرص الضائعة**» تعليقاً على ما كتبه المشير الجمسى من أن القوات الإسرائيلية غرب القناة كانت فريسة لقواتنا وهو نفس المعنى الذى جاء فى «المذكرات المنتحلة» لقائده المشير أحمد إسماعيل:

«لأول مرة نسمع أن الفريسة ـ كما يصورها الجمسى موقف إسرائيل على الضفة الغربية ـ هى التى بيدها السماح بمرور الأكل إلى الصياد .. ولأول مرة أيضا نسمع أن الفريسة يمكنها أن تضغط على الصياد حتى

تبكيه !!!»

أدخل الرئيس السادات الغش على المصريين فى فاصل هزلى من تاريخ الوطن عندما قدم تمثيلية فى مجلس الشعب فى فبراير ١٩٧٤، شاركه فى أدائها اللواء أحمد بدوى ويخلص مشهدها فى هذا الحوار:

- السادات: الجيش الثالث كان محاصراً يا بدوى ؟

- بدوى: لا يا افندم .

- السادات: الأكل كان بيوصلكم بانتظام يا بدوى .

- بدوى: أيوه يا افندم

وقد تناسى كل من السادات وبدوى أن ربع قوة الجيش الثالث (٤٥ ألف مقاتل) قد نزلت من الميدان فى أجازة، وأن الهمس يدور فى جنبات البيوت والمنتديات حول كارثة حصار الجيش الثالث التى تعد الأولى من نوعها فى تاريخ الجيوش .

.. وبقيت حقيقة الثغرة لغزاً حتى اليوم .. فلم يعلن كتاب المذكرات من قادة أكتوبر عنها ما يستحق التوقف عنده، وبقيت قرارات السادات مثاراً لتساؤلات كثيرة حتى الآن !! وأهمها ذهابه إلى العدو ليعرض سلامه المزعزم!!.. وخاصة أن صدور القرار على المستوى الاستراتيجى

فى بلدنا غير واضح الحدود والمعالم لطبيعة نظم الحكم السائدة والتى تعتبر الحاكم بمثابة مركز القوة الوحيد بغض النظر عن تعدد المؤسسات من حوله، والتى تعطى الرئيس الحق فى أن يصدر قرارات فى أمور ربما تتجاوز معرفته سواء من الناحية العلمية أو من ناحية الخبرة أو الممارسة.

مما جعلنا نلجأ ـ أحيانا ـ إلى ما فى وثائق العدو لمحاولة الفهم، يقول الجنرال إريل شارون مهندس عملية الثغرة فى مذكراته والتى يطلق عليها فى الوثائق الإسرائيلية عملية «الغزالة»:

«عندما وصلنا إلى الشاطئ الغربى من قناة السويس لم نجد فى انتظارنا سوى الشجر وضوء القمر .».

ومن أهم ما أبرزه الصحفى الفرنسى اليهودى الجنسية جوزيف فنكلستون فى كتابه بعنوان: «السادات .. وهم التحدي» والذى قال فيه ما مضمونه أن السادات قد فشل تماما فى تحقيق أوهامه فى أن يصبح بطل الحرب والسلام، وأنه اصطدم باللاءات الخمس الإسرائيلية (لا للعودة إلى حدود يونيو ١٩٧٦ ـ لا للدولة الفلسطينية ـ لا لتقسيم القدس ـ لا لعودة اللاجئين ـ لا للحكم الذاتى فى الضفة والقطاع) .

.. وراح السادات يقدم البدائل ليقنع الجانب الإسرائيلى بقبول وجهة نظرة فتارة يعرض توصيل مياه النيل إلى للقدس عبر ثلاث صحرات أسفل قناة السويس لتكون «ماء زمزم الجديدة» ـ على حد قوله ـ والحقيقة

أنه كان يقدم عرضاً لزراعة صحراء النقب لتكون بديلاً عن الضفة الغربية التى يحاول أن يقنع إسرائيل بالتخلى عنها للفلسطينيين؛ .. ويأتى الرد الإسرائيلى: «لن نفرط فى حقوق شعبنا بشربة ماء» .. لكنهم وضعوا المقترح أساساً لفكرة بدأها قادتهم منذ سنة ١٩٠٣ وعلى الشعب المصرى أن يكتوى بها الآن !!

وراح السادات يعرض فكرة إنشاء مجمع الأديان فى سيناء ليكون بديلاً عن القدس .. وسخر العالم من هلاوسه، وذكر بوب وود ورد فى كتابه بعنوان: «القناع» أنه ـ السادات ـ صار مدمنا للحشيش وأصبح متلهفاً عليه»!!

.. بانت الحقيقة بوضوح أمام السادات فى رحلته إلى حيفا التى تمت فى ٤ سبتمبر ١٩٧٩ .. كانت الرحلة نفسها غريبة، فقد تمت على الباخرة المصرية « الحرية» التى بنيت فى عهد الخديو إسماعيل وتعتبر أقدم قطعة بحرية تجوب البحار فى العالم الآن، واستقبلتها فى ميناء حيفا تشكيلات من الطائرات الإسرائيلية وعشر سفن حربية من حاملات الصواريخ الإسرائيلية .. وفى إسرائيل أعاد السادات طرح فكرتى توصيل مياه النيل إلى القدس ورفع سقفها لتصل إلى صحراء النقب وفكرة مجمع الأديان، غير أن اليهود رغم الترحيب الديبلوماسى به، فقد أرسل الحاخامات أصحاب اليد العليا فى الإدارة والسياسة فى إسرائيل له رسالة مضمونها أنه «شخص منبوذ» ولا يستحق «بركة عشاء الرب»،

يروى أنيس منصور فى مقاله بمجلة «أكتوبر»:

«وأمام فندق دان كارمل قابلنى صحفى إسرائيلى وقال لى: كارثة دينية .. العشاء لن يقام للرئيس السادات هكذا أفتى حاخام مدينة حيفا!!.. وقد توسل بيجين رئيس الوزراء وبورج وزير الداخلية للحاخام ألا يوقع إسرائيل فى هذه المصيبة الكبرى وأمام العالم كله.

.. والحكاية أن السادات كان يصر على أن يأخذ طعامه معه فى رحلاته وهو طعام من نوعية خاصة من اللحوم والخضراوات المسلوقة ومكرونة تحتوى على نسبة قليلة من النشويات لزوم الرشاقة وهى أشياء تبدو مألوفة؛ لكنها من وجهة نظر الحاخامات مخالفة صارخة لتعاليم الديانة اليهودية.

وذهب طهاة فندق دان كارمل وأخبروا الحاخام أن مخالفة فظيعة قد وقعت وأن طريقة غير شرعية استخدمت فى طهو طعام الرئيس السادات.

فالديانة اليهودية تحتم على كل مطعم أن يلتزم بحرفية الدين، فالطاهى يجب أن يحصل على شهادة من الحاخام بأنه يعرف طهو اللحوم والخضراوات بالطريقة الشرعية، والطاهى يستخدم أدوات معينة. والفنادق يجب أن تمشى على هذه التعاليم، فهى لا تقدم إلا اللحوم المذبوحة شرعاً، ولا تسمح بغير ذلك، وإلا أعلن الحاخام أن الطعام حرام والفندق كله حرام!

وأمام توسلات رئيس الوزراء وتفسيرات رجال الحاخام من استخدام الأوانى استخداماً لا يخالف الدين أكملت الحفلة الكبرى التى أقامتها الدولة ابتهاجاً بأنور السادات.

ومضت هذه الحادثة الصغيرة، او التى يجب أن تظل صغيرة» .

ولكننى أرى أن تلك الحادثة الصغيرة، أو التى يجب أن تظل صغيرة ـ من وجهة نظر الأستاذ أنيس منصور ـ لها دلالات وإشارات ورموز فى أحداث التاريخ الذى نتجاهله تارة، ونزور وقائعه عن قصد تارة أخرى!!؛ فلو فهمنا وقرأنا الأحداث القراءة الصحيحة ما كان هذا حالنا .

تجربتى الشخصية:

كانت تجربتى الخاصة فى التعامل مع الواقع على الأرض تجعلنى لا أتقبل بسهولة الشهادات عن واقعة محددة دون تمحيص كاف، وأن أضع فى اعتبارى موقع الرؤية للشاهد، ومسافة الرؤية، ومنظور الرؤية، وزاوية الرؤية ومدى اتساعها أو انحسارها؛ فقد تم تجنيدى فى ٢ أبريل ١٩٧٧ بعد التخرج من آداب القاهرة جندى مقاتل مؤهلات عليا بالقوات المسلحة بعد سنوات قليلة من حرب أكتوبر، وتم إلحاقى على الفرقة ٢٣ قتال بالجيش الثانى الميدانى بأحد التشكيلات القتالية بأحد ألوية المشاة الميكانيكية الرابضة فى القطاع الأوسط بين الدفرسوار وأبو سلطان وامتداد ذلك القطاع داخل سيناء حيث وقعت الثغرة .. كانت ذاكرة من

التقيت بهم مازالت طازجة .. وكان الحزن النبيل على من استشهد من رفاق السلاح مازال يكسو ملامح الرجال .. كان البعض يحكى الكثير عن أدوار الفخار الوطنى المتوارث، والسائد فى كل كتابات المدرسة الوطنية فى الكتابة التاريخية وأنماط كتابها الذين تعلموا التاريخ عبر مدرسة الدعاية الثورية!!

.. وكان البعض يتحدث بمرارة عن تجربة كان من الممكن أن تؤتى نتائج أفضل لولا طعنة الغدر بسبب الثغرة، .. وكان البعض يبتلع الإجابات إيثاراً للسلامة !! .. لكن أحداً لم يجبنى إجابة واحدة تشبع ظمئى للمعرفة عن كيفية حدوث الثغرة !! .. استمعت إلى شهادة البعض عن انقطاع الاتصال بين قيادة الفرقة والقيادة العامة، وخسائر الفرقة نتيجة القرار السياسى بتطوير الهجوم، واستشهاد قائد الفرقة العميد أحمد عبود الزمر .. واستمعت إلى بعض الشهادات عن استشهاد المقدم حماد قائد الكتيبة التى عملت تحت علمها .

لم يكن أحد من قادة الحرب قد كتب مذكراته بعد، ولم يكن قد صدر سوى كتاب أقرب إلى القصة وهو «رحلة الساق المعلقة» للعميد عادل يسرى (دار المعارف ـ ١٩٧٤)، وكان غالى الثمن مما جعل الكثيرين لا يهتمون به؛ فقد تم طرحه بسعر جنيه واحد كاملاً أى بما يعادل ثمن اثنين كيلو ونصف الكيلو من اللحم البلدى فى ذلك الوقت (كان ثمن كيلو اللحم البلدى ٤٠ قرشاً فى ذلك الوقت) ثم توالت المذكرات عن حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر وكامب ديفيد، وكانت كلها تنطوى على الإشادة بـ «حرب أكتوبر» دون تنويه عن الأسباب التى حولتها إلى (نصف انتصار .. نصف

هزيمة).

.. ولم يقل لنا أحد شيئاً عن الأسباب الحقيقية لهزيمتنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧.. وكشف المشير محمد عبدالحليم أبو غزاله القائد العام للقوات المسلحة الأسبق سر عدم التوصل إلى الأسباب الحقيقية للهزيمة من واقع التقارير التى كتبها قادة الجيوش..

قال أبو غزاله فى رسالة وجهها للصحافة المصرية إنه اكتشف أن من عُهد إليهم بكتابة الأسباب نقلوا تقارير الحرب إلى بيوتهم ليكتبوها على هواهم؛ لذا استبعدت لجان التحقيق هذه التقارير لعدم أمانتها وخشية زيفها!!

ولم تسجل الوثائق العسكرية تقارير القادة وبالتالى دفنت وثائق الهزيمة إلى الأبد.

كنت أنتوى كتابة ما سمعت لكنى لم أفعل لأسباب كثيرة ومتنوعة أهمها الرقابة العسكرية لكل ما ينشر عما يتصل بالجيش .. فلم يسبق أن كتب جندى مُجند مذكراته أو أحد من الدرجات والرتب الصغيرة، وكان الاستثناء الوحيد هو ما كتبه الجندى المُجند القناص أحمد نوار الذى أصبح الدكتور أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة فى مذكراته بعنوان: «**نوار .. عين الصقر، قناص حرب الاستنزاف**».

والذى قدم له اللواء عبد المنعم خليل القائد الثالث للجيش الثانى الميدانى أثناء حرب أكتوبر خلفاً للواء سعد مأمون الذى داهمته أزمة قلبية فى فى يوم ١٤ أكتوبر، فتولى قيادة الجيش الأيام اللواء تيسير العقاد الذى نحّته القيادة العامة بعد يوم واحد، وأسندت قيادة الجيش الثانى إلى اللواء عبد المنعم خليل قائد المنطقة المركزية فى يوم ١٦ أكتوبر الذى حدثت فيه الثغرة، . . وهو ما جعل اللواء عبد المنعم خليل قائداً على الورق فقط لمدة أربعة أيام تولى فيها قيادة الجيش الثانى الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس الأركان، ولم يمارس اللواء عبد المنعم خليل القيادة الفعلية إلا بعد عودة الفريق الشاذلى إلى القاهرة ليعرض على القيادة خطته فى التعامل مع الثغرة، التى رفضتها القيادة العليا للقوات المسلحة وجمدته وصعدت اللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس العمليات رئيساً للأركان بدلاً منه .

كهذا تم فرض «الصمت الحذر» على الرجال من صغار الدرجات والرتب، وتم التوصل إلى اتفاق غير مكتوب بين الكبار على «الإشادة» فقط !!، .. ومن خرج عن الاتفاق لقى ما لا يرضيه (الفريق سعد الدين الشاذلى مثالاً) .

.. أذكر أثناء عملى فى مجلة «المصور» أن قدم حمدى لطفى المحرر العسكرى مادة صحفية للمجلة للنشر فى أكتوبر ١٩٨١ بعنوان: «التكييف القانونى لقضية اغتيال الرئيس أنور السادات»، كان حمدى لطفى قد حصل على تصديق شفهى بالنشر من الضابط المختص تليفونيا بعد أن قرأ عليه مادة الخبر، .. وحدث أن ثارت أزمة بسبب هذا الموضوع قبل النشر بسبب إبلاغ أحد عمال المطبعة المتعاونين مع بعض الأجهزة

الأمنية، .. أنكر الضابط الذى وافق شفاهة على النشر معرفته بالموضوع، وتم القبض على حمدى لطفى بمعرفة الشرطة العسكرية من غرفة مكتبه المقابلة لغرفة مكتبى بدار الهلال، وتقديمه إلى النيابة العسكرية التى أخلت سبيله بغرامة مالية ١٠ آلاف جنيه دفعتها مؤسسة دار الهلال، وهو مبلغ ضخم فى ذلك الوقت .

المثال الثانى: عندما نشر الزميل عبد الستار أبوحسين المحرر العسكرى لـ «جريدة الشعب» موضوعاً مترجماً عن صحيفة أجنبية عن تجارة السلاح، ورأى المسئولون فى مصر فى ذلك الأمر ما يمس بعضهم، وتم القبض على الزميل، وتقديمه لمحاكمة عسكرية قضت بحبسه لمدة سنة، ولم تفلح وساطة نقيب الصحفيين آنذاك الأستاذ إبراهيم نافع فى إيقاف العقوبة، والإفراج عنه أو تخفيفها.

المثال الثالث: عندما أدلى المحامى طلعت السادات بتصريح صحفى عن تراخى الحراسة فى حماية عمه الرئيس أنور السادات مما كان سبباً فى اغتياله، وتم القبض على طلعت السادات وتقديمه لمحاكمة عسكرية قضت بحبسه لمدة سنة قضاها فى أحد السجون العسكرية .

.. لذا كان المجهول عن تلك الفترة أكثر من المعلوم !!

مشروع التعمير الحضارى:

حدثت الثغرة .. طعنة الغدر فى ظهر الجيش المصرى .

وبدأت مباحثات الكيلو ١٠١ لحفظ ماء وجه السادات؛ فلم يسبق على مدى التاريخ العسكرى أن حوصر جيش بكامل قواته وعتاده !!

كانت إسرائيل تضغط على السادات بتجويع الجيش الثالث، وإجباره على الاستسلام، والخروج من الميدان بدون سلاحه !!

وبعد إذعان السادات لكل طلبات إسرائيل المجحفة التى حملها إليه فى أسوان د.هنرى كيسنجر فى يناير ١٩٧٤ والتى أبكت المشير محمد عبد الغنى الجمسى .. بينما كان السادات يكتب خطاباً إلى جولدمائير ليحمله إليها كيسنجر والذى بدأه بعبارة: «عزيزتى مسز جولد» والذي تضمن موافقة مصر على بنود «المشروع الإسرائيلي» للسلام المزعوم.

ومنذ ذلك اليوم بدأت رحلة «التطبيع» مع كيان العدو الصهيونى وظهرت بشكل حاد لأول مرة مناقشات دارت فى إطار لجنة « التعمير الحضاري» التى شكلها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى مؤسسة الأهرام، وكان الهدف منها هو دراسة المشروع الحضارى العربى ومستقبله بعد الانتصار الذى حققته الأمة العربية نتيجة لتوحيد الجهود العسكرية والاقتصادية وكانت اللجنة تضم:

محمد حسنين هيكل ود. محمود فوزى ود. زكى نجيب محمود ود.حسين فوزى ود. لويس عوض ود. جميل مطر ود. عبد الوهاب المسيرى والأستاذين توفيق الحكيم وأحمد بهاء الدين.

كانت توجهات أغلب أعضاء اللجنة من الصهاينة المصريين (د.محمود فوزى ـ د. زكى نجيب محمود ـ د.حسين فوزى ـ د. لويس عوض ـ توفيق الحكيم) محسومة بحكم علاقاتهم الوثيقة بالكيان الصهيونى وزيارتهم لعصاباته قبل إعلان دولة الكيان الصهيونى فى ١٥ مايو ١٩٤٨، وكان هذا الاتجاه يتبنى رأى أنه لا خلاص للعرب إلا بتبنى الحضارة الغربية وقيمها، وأن النموذج الغربى للتنمية جدير بالتبنى بأكمله، وأنه لا يوجد نموذج بديل، وأن على العرب أن ينسوا تراثهم وتاريخهم وأن يحذو حذو أوربا فى كل شيء ؛ فالتحديث فى رأى هؤلاء فى واقع الأمر هو التغريب، أى اتباع أساليب الغرب فى التفكير والسلوك والتنمية بحلوه ومره !!

وطرح توفيق الحكيم النموذج الصهيونى وعبر عن إعجابه به باعتباره جزءاً من النموذج الغربى، وحكى تجربته عن زيارته للجامعة العبرية فى أثناء حكم الانتداب!!

وتابع د.حسين فوزى التعبير عن إعجابه بالنموذج الصهيونى، وحكى ذكرياته عن زيارته للجامعة العبرية بصحبة طه حسين سنة ١٩٤٤، وكيف نصحهما د. محمود فوزى سفير مصر فى فلسطين آنذاك بإخفاء خبر تلك الزيارة !!

كانت الأسانيد التى يسوقها هؤلاء الصهاينة المصريون للتطبيع مع دولة الكيان الصهيونى هى نفس الأسانيد التى ساقها أسلافهم من الماسون للانفتاح على حضارة الغرب فى القرن ١٩!!

بينما طرح د. عبد الوهاب المسيرى والأستاذ أحمد بهاء الدين ضرورة أن نتحفظ فى استيرادنا للأنماط الحضارية الغربية حتى نحتفظ بهويتنا، وأنه لا يجوز الترويج للنموذج دون فهم أصوله وأسباب نجاحه المزعوم ومدى إمكانية استمرار هذا النجاح عبر الزمان؛ فالحضارة الغربية قد قامت على احتلال أرض الغير وقمعه ونهب ثرواته وانتهاج سياسات تؤدى إلى استمرار تخلفه وتحول دون تحديثه أو لحاقه بركب الديمقراطية، وإسرائيل التى يعتبرها (د. محمود فوزى ـ د. زكى نجيب محمود ـ د.حسين فوزى ـ د. لويس عوض ـ توفيق الحكيم) نموذجاً للحضارة الغربية يجب أن يحتذى فى شرقنا العربي؛ فدولة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين دولة قامت على أرض الآخرين، ولا تستمد شرعيتها من العقل أو أى قيم نبيلة وإنما من منطق القوة وشريعة الغاب .

واحتدم النقاش حول «المشروع الحضارى العربي» بين دعاة التغريب ودعاة إعادة النظر فيها، ورؤيتها بشكل نقدى يصدر عن إدراك لأهمية التراث والهوية ؛ فلم تتقارب وجهات النظر .

وقرر الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس اللجنة عقد مؤتمر لدراسة

مستقبل «المشروع الحضارى العربي».. لكن هذا المؤتمر لم يعقد بسبب خروج هيكل من الأهرام فى ٢ فبراير ١٩٧٢.*

***

وتخرجت فى آداب القاهرة فى أكتوبر ١٩٧٦ وأنا موقن تماما ـ حسب فكر الأساطير الذى نقلته لنا السرد فى الحواديت ـ أن «الذئب نائم فى سرير الجدة» .. يرضع أحفادها اللبن المسموم، ويحكى لهم حواديت التاريخ المزيف عن الأبطال الوهميين، وأدعياء الفكر، والوقائع المغلوطة عن دور الأشخاص وحدود الأماكن وتتابع الوقائع!!، وكلها من أساليب التلاعب بالوعى، التى لا تنتج سوى أجناس من البشر لا تزيد عن كونها فضلات بشرية تعد إضافات كمية إلى عبث الوجود، وينتهى مآلهم إلى خرائب ومواخير الدنيا فى أشباه الدول ومزابل التاريخ !!

ومع تقدم سنوات العمر وزيادة المعارف والخبرات، وفى ظل التطور الهائل لعلم البيولوجى، وما أخذته عنه تكنولوجيا البرمجيات من مصطلح الفيرس Virus أستطيع أن أقدم توصيفاً أكثر فهماً وتدقيقاً لتغلغل الخلايا الناقلة لعدوى الفكر الاستشراقى فى آداب القاهرة والأشبه بتعلق الفيرس Virus الاستشراق بجدران آداب القاهرة !!

• محاضر الجلسات التى سجلت موجودة فى مكتبة مؤسسة الأهرام؛ ليرجع إليها من يرغب .

والفيرس Virus هو التكوين الفاصل بين الحياة والطبيعة غير الحية، وهو الدليل الحى على الإخلال ببرامج الآخر حيث يتحور الفيرس Virus ليستغل نمطاً محدداً من الخلايا الحية وعندما يعثر عليها يتشبث بجدارها ويحقنها بجزيئ واحد من الـ (ر. ن. ا . الحمض النووى الريبى .R.N.A (Ribonucleic acid) ويظل هذا الجزيئ R.N.A. ينقل إلى تلك الخلية المنكوبة أوامره المكتوبة فى ضفيرته الجينية وتأمرها بإنتاج الفيروسات المشابهة للفيرس Virus العالق بجدار الخلية .

.. بعد ذلك تظهر الفيروسات المنتجة فى الخلية كحكومة ظل سرية تخضع لإرادتها النشاط الحيوى لهذه المنظومة، وتصير موارد الخلية الآن موجهة لتنفيذ الأوامر المكتوبة فى جزيئ R.N.A. الذى حقنت به الخلية، والذى يعيد ضبط منظومات الخلية الإنتاجية المعقدة كى تنتج الفيروسات Viruses وتلبسها قشرة بروتينية حتى تمكنها من قتل الخلية المنهكة بعد ذلك .

الفصل الثالث:

الحركة الطلابية !!

بدأت الدراسة فى آداب القاهرة فى الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧٢ مع بداية العام الخامس للحركة الطلابية بعد انطلاقها مرة ثانية فى أواخر الستينيات (فبراير ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧) بعد حالة من الصمت السياسى مع نهاية سنة ١٩٥٤ وإدماج الطلاب فيما أسموه تحالف قوى الشعب حسب توجه نظام الحكم القائم آنذاك، فالطلبة ليسوا طبقة اجتماعية مهما بلغ تساهلنا فى تعريف مصطلح الطبقة، وليسوا بالبديهة حزبا سياسيا، ولا هم «الشباب» الذين يواجهون الكبار، وإلا فأين العامل الشاب والفلاح الشاب والعاطل الشاب وغيرها من التصنيفات التى تضم الشباب!!

.. ولا توجد هوية طلابية ثابتة تجمع بين طلاب الجامعات الحكومية المنتمين إلى الشريحة الوسطى من الطبقة المتوسطة والشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة، وبين طلاب الجامعة الأمريكية التى انعزل طلبتها فى إطار ما يعتقدون أن الجور الذى حاق بطبقتهم، وتجاوزت تطلعاتهم حدود الوطن والسعى إلى آفاق تحقق لهم الآمال التى افتقدوها فيه !!

طلبة الجامعة إضافة إلى كونهم أبناء بيئات اجتماعية مختلفة؛ فهم عبارة عن تجمع من الدارسين لعلوم مختلفة فى جامعات وكليات مختلفة، يتوزعون على عدد من السنوات الدراسية، ويلاقون مصائر متباينة تماما بعد تخرجهم .

«**الطلبنة**» ليست صفة ثابتة، تبدأ بدخول الجامعة؛ فيتمتعون بوضع انتقالى ينتهى بتخرجهم، بمعنى دفعة داخلة ودفعة خارجة، ولا يربط بينها

صفة «التراكمية»!! .

وقد تميزت أغلب فئات الطلاب بـ «القذارة»، قبل ١٩٦٨، نظرا لارتباطهم الوثيق بالأجهزة الأمنية بزعم حماية الثورة (انقلاب يوليو ١٩٥٢) من أعدائها ـ كما ذكرت فى الجزء الأول ـ وقيامهم على الإظهار الدائم للولاء وترديد شعارات النظام فى كل مناسبة دعيت فيها لإظهار الولاء، والتأييد لنظام الحكم بالحق وبالباطل!!

يعتقد البعض أن إعادة بعث الحركة الطلابية فى أواخر الستينيات ولد من رحم هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، وهو اعتقاد يجافيه الصواب لعدة أسباب منها:

أولاً ـ أن الانتفاضة الأولى للطلاب كانت فى ٢١ فبراير ١٩٦٨ أى بعد ثمانية شهور من الهزيمة فى ٥ يونيو ١٩٦٧، وخروج جماهير الشعب ومنها الطلاب فى ٩، ١٠ يونيو للتمسك ببقاء قائد الهزيمة فى موقع القيادة مستجيبة للشحن الإعلامى عن وجود مؤامرة خارجة عن إرادته أدت إلى الهزيمة .

ثانياً ـ أن الصدمة التى أحدثتها الأحكام المخففة فى محاكمة قادة الطيران فى ٢٠ فبراير ١٩٦٨ أثارت غضب عمال مصنع الحديد والصلب الذين خرجوا فى تظاهرة منددة بتفاهة الأحكام بما لا تناسب حجم الجريمة فى ٢١ فبراير ١٩٦٨ وطبقا للتعليمات الصادرة لكوادر منظمة الشباب وطليعة الاشتراكيين بتحويل المظاهرات الغاضبة إلى مؤتمرات

شعبية ليبدو الأمر كما لوكان الوضوع سياسياً قابلاً للاحتواء السياسى وفى تلك المؤتمرات الشعبية يتم التنفيس عن طاقات الغضب وتنتهى إلى اللا شيء!!

كان الاتحاد الاشتراكى يدعم الفكر العسكرى للنظام فى إدارة شئون الأمة؛ وكانت منظمة الشباب التى تم تدريب كوادرها فى المعسكرات والمؤتمرات على قيادة قطيع الشباب فى اتجاه الولاء للنظام وتأليه رموزه .. هكذا كان العسكريون يديرون الأمور فى السلطة وفى التنظيم الشعبي!!

ثالثاً ـ كانت تظاهرات الطلبة والعمال فى فبراير ١٩٦٨ تحمل شعارات منظمة الشباب التى كان يقودها اللواء أحمد كامل أحد كوادر المخابرات العامة والتى أصبح رئيساً لها فيما بعد .

الانتفاضة الأولى:

وتخلص حكاية الانتفاضة الأولى فى ٢١ فبراير ١٩٦٨ إلى أنها كانت فورة انفعال نتيجة الشحن الإيجابى قبل الحرب عن إلقاء العدو فى البحر وإنهاء وجوده فى ٢٤ ساعة؛ لتصبح دولته أثراً بعد عين؛ فلما كانت الهزيمة وجد النظام مشكلة فى تفريغ الشحن واكتفى بالترويج لـ «نظرية المؤامرة»؛ فلما كانت الأحكام الهزيلة بحق قادة الهزيمة.. ثار العمال، وتم احتواء ثورتهم فى مؤتمر تم التنفيس فيه عن طاقات الغضب، وانتهى

المؤتمر العمالى فى مصنع الحديد والصلب بقرار أن يقوم العمال بعمل مسيرة سلمية برعاية كوادر منظمة الشباب وطليعة الاشتراكيين تبدأ من المصنع، وتنتهى أمام مقر الاتحاد الاشتراكى بحلوان بالقرب من قسم شرطة حلوان للتعبير عن الاستياء من الأحكام المخففة، ولكن ليست ما تؤمن بداياته تؤمن نهاياته فقد هتفت جماهير العمال ضد عبد الناصر لأول مرة، وحملته المسئولية عن الهزيمة:

« لا صدقى*(١) **ولا الغول***(٢)**، عبد الناصر هو المسئول» .**

وعند قسم شرطة حلوان فاجأت قوات الشرطة المتظاهرين بإطلاق النار عليهم وقتل ٢ من العمال مما دفع العمال للاشتباك مع الشرطة مما أسفر عن إصابة ٧٧ من المواطنين و١٤٦ من رجال الشرطة وألقى القبض على ٦٣٥ شخصا وتدمير بعض المركبات .

كان واضحاً أن إطلاق النار على العمال مجرد رسالة من نظام الحكم للجميع بأن الخروج إلى الشارع عاقبته الموت!!، وأن النظام لن يتوانى عن الضرب بالحديد والنار على أيدى من يريدون المشاركة بالرأى فى صناعة مستقبل بلدهم، وتصحيح أخطاء النظام بحجة أن «مفيش وقت للكلام ده»!!

- **(١) اللواء صدقى محمود قائد سلاح الطيران أثناء هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧**
- **(٢) اللواء صدقى الغول قائد الفرقة الرابعة درة التاج فى القوات المسلحة المصرية والتى تكبدت خسائر فادحة فى هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ نتيجة الارتباك فى إصدار الأوامر .**

وعلم العمال فى المصانع الأخرى بما حدث لزملائهم فى حلوان فاندلعت المظاهرات فى كل مصانع حلوان، وتصادف أن يوم ٢١ فبراير هو يوم الطالب المصرى الذى يحتفل به الطلبة سنوياً فى ذكرى يوم الخميس الدامى الشهير عام ١٩٤٦، وتحولت الاحتفالات بذلك اليوم إلى سلسلة من حلقات النقاش السياسى، حيث حاول المسئولون فى الجامعة والحكومة الرد على تساؤلات الطلبة حول الوضع السياسى، ولأن المسئولين لم يقدموا إجابات واضحة لأسئلة الطلبة اشتعلت نار الغضب فى جامعات مصر فى القاهرة وعين شمس والإسكنرية وفى الأيام التالية خرج الطلبة من بوابات الجامعة وانضموا إلى العمال.

وذهب المتظاهرون إلى مبنى جريدة الأهرام وقذفوه بالحجارة، وهتفوا ضد الأستاذ هيكل الذى أطلقوا عليه لقب «كاهن المعبد» الذى خدعهم بما كان يكتبه من مطولات عن عبد الناصر والتهوين من شأن العدو والمبالغة فى قدرات الجيش المصرى واعتبروه مسئولاً عن الهزيمة .

كما هتفوا ضده: «**يا هيكل يا جبان ، فين بصراحة عن حلوان**» .

وكان هيكل لم يشر بسطر واحد إلى تلك المظاهرات التى قوبلت بقمع وحشى .

وفى اليوم التالى نشرت الأهرام عن مظاهرات القاهرة التى وقعت أمام مبنى الجريدة، وذكرت أن أربعة من الطلبة دخلوا إلى المبنى وعبروا

عن مطالب المتظاهرين كالتالى:

« إن شباب الجامعات يسجلون اعتراضهم على الأحكام الصادرة فى قضية الطيران، وهم يجددون العهد والبيعة للمناضل جمال عبد الناصر ويتوجهون إليه باسم الشباب الجامعى أن ينظر فى هذه الأحكام تلبية لرغبة الجماهير الشعبية» .

.. اختزلت جريدة «الأهرام» حالة السخط الشعبي في قضية الأحكام وخلعت على جمال عبد الناصر قائد الهزائم لقب «مناضل» بينما الحقيقة أن المظاهرات فى طريقها إلى نقابة الصحفيين ورددت هتافات تصم الصحفيين بالجبن والكذب، .. ولم يجد مجلس نقابة الصحفيين بدا من عقد جلسة فى تمام الساعة ١٥: ١٢ ظهر يوم الأربعاء ٢٨ / ٢ / ١٩٦٨ لمناقشة الأحداث برئاسة الأستاذ أحمد بهاء الدين نقيب الصحفيين وحضور الأساتذة كامل زهيرى وفتحى غانم وعلى حمدى الجمال ومحمود سامى وسعيد سنبل وصبرى أبو المجد ومنصور القصبى ومحمود المراغى وسامى داود وصلاح الدين حافظ واعتذر الأستاذ طلعت شعت .

وجرت مناقشة واسعة حول الأحداث الأخيرة وتمت صياغة بيان جاء فيه:

«إن مجلس نقابة الصحفيين يعتقد أن المظاهرات التى قام بها طلبة الجامعات والعمال كانت تعبيراً عن إرادة شعبية عامة تطالب بالتغيير

على ضوء الحقائق التى كشفت عنها النكسة والدروس التى لا بد أن نستخلص منها:

أولاً: الإسراع فى الحساب بداية من كل المسئوليات الكبرى، وتعميم هذا الحساب حتى يشمل كافة القطاعات والمؤسسات فى البلاد .

ثانياً: إعادة تشكيل التنظيم السياسى واستكماله .

ثالثاً: توسيع قاعدة الديمقراطية والمشاركة فى اتخاذ القرارات داخل التنظيم .

رابعاً: الإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات العامة التى تكفل الضمانات الفردية .

خامساً: إجراء الانتخابات للجان النقابية ومجالس الإدارة التى لم تنتخب.

سادساً: ترتيب النتائج التى يجب أن تترتب على وجود عدو يحتل جزءا من أرض البلاد واستمرار حالة الحرب فى مجالات الاستعداد النفسى والمادى والاقتصادى على أن تتحمل العبء كل الفئات التى يجب أن تتحمله.» .

.. وتم إرسال البيان إلى الأمين العام للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى

ليلقى مصيره فى سلة المهملات، ويبقى الحال كما هو عليه !!

***

فى يوم ٢٤ فبراير شكلت مجموعة من طلاب كلية الهندسة جامعة القاهرة وفدا من الطلبة المتظاهرين للذهاب إلى مجلس الأمة لتقديم مطالبهم لرئيس المجلس أنور السادات رئيس مجلس الأمة وعند تسجيل أسمائهم أبدى الطلبة تخوفاتهم من أن يتم اعتقالهم، لكن أنور السادات طمأنهم وأعطاهم كلمة شرف أنه لن يصاب أحدهم بسوء، وأعطاهم رقم تليفونه الخاص وطلب إليهم الاتصال به حال حدوث مكروه لأحدهم !!

ومع ذلك اتضح أن مخاوف الطلاب كانت لها ما يبررها؛ حيث تم اعتقالهم من منازلهم فى نفس الليلة .

وفى اليوم التالى عقد الطلبة اجتماعاً موسعاً نددوا فيه بالخديعة التى أوقعهم فى شركها أنور السادات رئيس مجلس الأمة، وقرروا الاعتصام فى كلية الهندسة بالرغم من أن الحكومة قررت تعطيل الدراسة فى ٢٥ فبراير إلا أن الاعتصام استمر ثلاثة أيام، بينما كانت الانتفاضة فى سائر أنحاء البلاد تحتضر وتذبل، وتميز اليوم الأول للاعتصام بالاصطدام مع الشرطة وإلقاء الأحجار على جنود مكافحة الشغب، واستخدمت الشرطة تكتيكا جديدا بأن انسحبت إلى حديقة الأورمان لإتاحة الفرصة لاستخدام أشكال أخرى من الضغط على الطلبة؛ حيث تم استدعاء الأساتذة وأولياء أمور الطلاب لحث أبنائهم للتخلى عن حركتهم ونجحت الخطة فانخفض

عدد الطلاب المعتصمين من ٥٠٠ طالب إلى ١٨٠ طالبا .

وكانت صيغة التسوية التى أنهت الاعتصام هى ما عرض على الطلبة من خلال وساطة دكتور مهندس إبراهيم جعفر الذى أعادهم إلى المربع الذى حدثت فيه الخديعة الأولى التى أغضبتهم، وهو أن يتقدم الطلاب بمطالبهم مرة أخرى إلى أنور السادات رئيس مجلس الأمة وتم نقل الطلاب فى عدد من سيارات الأجرة إلى مقر المجلس، وضع دكتور مهندس ابراهيم جعفر طلبته مرة أخرى تحت مخالب أنور السادات الذى كشف عن وجهه الحقيقى وأبرز أظافره وأنيابه حيث انعقد الاجتماع المقترح مساء ٢٨ فبراير، وبدا أنور السادات معادياً لكل من الطلبة ومطالبهم حيث نحى بيده فى اشمئزاز البيان الذى حمله إليه الطلبة قائلاً:

«أنا أرفض هذا البيان شكلاً وموضوعاً .. كان عندى باليل .. مش هو البيان بتاع الحرية تؤخذ وتغتصب .. أنا بقولكم لا لا .. لأن هذا البيان بنى على عملية انفعالية .. ولم يبن على الموقف اللى احنا فيه النهاردة بعد هذه المناقشات الديقراطية» .

أسقط فى يد الطلبة بعد أن تخلى عنهم أستاذتهم ومارس أولياء أمورهم الاستمالات العاطفية، ومارست عليهم الشرطة أقسى استمالات التخويف، ومارست عليهم القيادة السياسية استمالات التخوين !! .. ولم يكن أمامهم سوى الإذعان .

وتم إذاعة خبر مقتضب عن فض الاعتصام وإنهاء انتفاضة فبراير ١٩٦٨، ولم ينشر البيان فى الصحف بحجة اعتبارات ودواعى الأمن القومى.

وفى جامعة عين شمس نجح د . محمد حلمى مراد رئيس الجامعة فى البداية فى إقناع الطلبة بأن تنحصر حركتهم داخل حدود الجامعة على وعد أن ترفع آراؤهم فى قضية الطيران إلى الرئاسة دون حاجة إلى التظاهر، لكن اعتقال طلاب هندسة القاهرة أشعل التظاهرات فى عين شمس، ولم يكن حظ طلاب عين شمس أفضل من طلاب جامعة القاهرة الذين قابلوا السادات؛ فقد شكل طلاب عين شمس وفدا ذهب إلى بيت الرئيس جمال عبد الناصر، وقابل الوفد محمد أحمد سكرتير عبد الناصر وسلمه مطالب الطلبة، واستأذن محمد أحمد ليعود بعد عشر دقائق ويخبر الطلبة أن الرئيس سيرد على مطالب الطلاب فى خطبة عامة وأن الرئيس طلب منهم أن يعودوا إلى الجامعة ويفضوا الاعتصام واستجاب الطلبة لمطلب عبد الناصر الذين كانوا يصدقونه، وعادوا إلى منازلهم ليتم القبض عليهم فى الفجر بعد أقل من ١٢ ساعة من لقاء سكرتير عبد الناصر !!، وكانت النتيجة أن اشتدت التظاهرات وساعد على ازديادها سقوط أول شهيد مضروباً بالرصاص ولم يكن طالباً؛ فيحمله المتظاهرون مضرجاً بدمائه إلى بيت عبد الناصر، وهم يرددون شعارات الديمقراطية وإقالة وزير الداخلية السفاح شعراوى جمعة، وقد أثبتت تحقيقات النيابة أن الشهيد قتل نتيجة مقذوف نارى من عيار ٣٠٣ لى أمفيلد ، وأن الشرطة أطلقت الرصاص الحى فى المليان ليس فى الأقدام كما ادعى وزير الداخلية.

وفى ٣ مارس ١٩٦٨ ألقى عبد الناصر خطاباً فى حلوان حيث بدأت الانتفاضة أكد فيه على سلامة القاعدة العمالية والطلابية وأقر أنه كان يتابعها «لحظة بلحظة»، وألصق جرائم القتل والعنف بعناصر من أعداء الثورة .. أعداء الشعب ، أعوان الاستعمار تحاول استغلال الموقف لكى يموت بعض المتظاهرين وتتحول إلى مذابح، وهز للجبهة الداخلية .

إلا أن ادعاء عبد الناصر لم يكن مقنعاً، وكانت هذه المرة الأخيرة التى يثق فيها الطلبة بالسلطة، وقد نجحت تلك الانتفاضة التى التف حولها الطلاب بمختلف اتجاهاتهم تعبيراً عن مكنون الغضب فى النفوس فى أن تنهى دور دولة العسكر المنفردة بالقرار السياسى والمستفردة برعاياها من المدنيين العزل؛ فقد أجبرت عبد الناصر على أن يصدر أمرا بإعادة محاكمة الضباط المتهمين بالإهمال، وتشكيل وزارة كان أغلبها من المدنيين لأول مرة فى عهده (من التكنوقراط من أساتذة الجامعات)، وسعى لتجديد شرعية نظامه من خلال برنامج ٣٠ مارس بما تضمنه من وعود بإصلاحات ليبرالية .

وداخل الجامعات أزيلت العديد من القيود، فلم يعد الحرس الجامعى يتدخل فى النشاط السياسى للطلبة، ولم تعد لدية سلطة مراقبة صحف الحائط وصدرت لائحة طلابية بموجب قرار جمهورى منحت اتحاد الطلاب بلا وصاية من أعضاء هيئة التدريس وخفض رسوم الإقامة من ٧,٥ جنيه إلى ٥ جنيهات !! وزيادة مخصصات بنك الطلبة من مليون جنيه إلى ٣ ملايين جنيه .

الانتفاضة الثانية:

فى مناخ مختلف تماما عن المناخ الذى جرت فيه انتفاضة الطلبة الأولى فى ٢١ فبراير ١٩٦٨ حدثت انتفاضة الطلاب الثانية فى ٢١ نوفمبر ١٩٦٩ .

فقد تزامنت الانتفاضة الثانية مع إعلان قانون جديد للتعليم يحد من عدد المرات التى يسمح للطالب فيها بدخول الامتحان، ويضمن نجاح الطالب رغم رسوبه فى مادتين، كما رفع القانون درجة النجاح الصغرى فى عدد من المواد بالمرحلة الثانوية، وأنهى الانتقال الآلى من صف دراسى إلى آخر فى المرحلة الابتدائية، ووضع حدا أدنى من الدرجات للالتحاق بالمرحلة الإعدادية، وطبقا لهذا أصبح على الطلاب الحصول على مستوى معين من الدرجات كحد أدنى فى كل المواد الدراسية حتى يحققوا النسبة العامة للنجاح .

.. بدأت الانتفاضة فى مدينة المنصورة وانتهى اليوم الأول بتجمع طلابى فى مدرسة حكومية، أكد فيه المحافظ أن القانون لن يطبق بأثر رجعى وأنه لن يطبق على الطلاب المقيدين بالمدارس، وأكد للحضور أنه تلقى تأكيدات بذلك من وزير التعليم، ومع ذلك استمرت التظاهرات وتوسعت فى اليوم التالى لانضمام طلبة المعهد الدينى الأزهرى إليها، وطلاب بعض المدارس الخاصة .

وتوجهت إلى مديرية الأمن حيث أصبحت فى مواجهة قوة الشرطة التى أطلقت الرصاص؛ فقتل ثلاثة من الطلبة وفلاح، وجرح ٣٢ متظاهرا، و٩ ضباط و١٤ جنديا .

وسرعان ما انتقلت أخبار أحداث المنصورة إلى جامعة الاسكندرية التى تضم عدداً من الطلاب من أبناء الدقهلية، وتوقع محافظ الاسكندرية حدوث متاعب فعقد اجتماعاً يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر حضره مدير الأمن ورئيس الجامعة وخمسة من أعضاء تدريس كل كلية وكل نظار المدارس الثانوية بالمدينة وعدد من نظار المدارس الإعدادية وعدد من رؤساء الأحياء، وبحثوا احتمالات الاضطرابات واتفقوا أن تبدأ المحاضرات قبل موعدها بخمس دقائق وأن يتولى مدير الأمن حظر خروج الطلبة إلى الشارع، وتم تغييب العنصر الطلابى عن ذلك الاجتماع !! .

وبعد منتصف ليل٢٣ نوفمبر ١٩٦٨ عقد اتحاد كلية الهندسة جامعة الإسكندرية اجتماعا طارئا، واتخذوا قرارا بتنظيم مسيرة احتجاج سلمية، وقد انعقد ذلك الاجتماع بعد أن عاد الطالبان بالهندسة محمد ناجى أبوالمعاطى، ومحمد خيرت الشاطر- القيادى الإخوانى فيما بعد - من بلدهما المنصورة، ونقلا لزملائهما أخبار المظاهرات الطلابية هناك منذ يوم ٢٠ نوفمبر اعتراضا على القانون الجديد .

قرر «الاتحاد»، فى اجتماعه، التظاهر، تضامنًا مع مظاهرات المنصورة، ومنذ صباح يوم ٢٣ نوفمبر بدأ الطلاب فى التجمع بكلية

الهندسة، وتولى الطالبان «أبو المعاطى» و«الشاطر» الشرح للطلاب، ذكرا أن البوليس أحاط بمساجد المدينة «المنصورة» أثناء صلاة الجمعة.».

تزايد العدد فانطلقت الهتافات ضد وزير الداخلية شعراوى جمعة، وهتف الطالب تيمور الملوانى: «يا شعراوى يا سفاح.. دم الطلبة مش مباح»، وبعد ساعتين من النقاش الحاد سادت فوضى شديدة ـ طبقا لما ذكرته صحيفة الأهرام ـ ، وخرج الطلاب إلى الشوارع بقيادة عاطف الشاطر رئيس اتحاد طلاب «الهندسة»، **(لا تربطه صلة قرابة بالمهندس خيرت الشاطر ونهاية اسميهما بلقب الشاطر مجرد تشابه أسماء)**، رافعا علم الكلية، وحدث الصدام مع الشرطة أمام كلية الزراعة، فأصيب ٥٣ من رجال الشرطة، و٣٠ من الطلاب، وفى أثناء المظاهرات ألقى القبض على عاطف الشاطر وثلاثة من زملائه، ونقلوا إلى مديرية الأمن بالإسكندرية، فتفرقت المظاهرات وعاد الطلبة للتجمع فى كلية الهندسة.

وفى يوم ٢٥ نوفمبر حدث إضراب بالإسكندرية، وشهدت المدينة تظاهرات على نطاق واسع لم تشهدها من قبل وانتهت بصدام مع الشرطة ولقى ١٦ مصرعهم ٣ من الطلاب و١٢ من الأهالى وتلميذ عمره ١٢ سنة وإصابة ١٦٧ من الأهالى و ٢٤٧ من رجال الشرطة ١٩ ضابطا، و٢٢٨ جندياً، والقى القبض على ٤٦٢ شخصاً .

وبلغت التلفيات تحطيم ٥٠ أتوبيس نقل عام ٢٧٠ لوح زجاج ترام و١١٦ غشارة مرور ٢٩ كشك مرور ١١ زجاج محل تجارى وعدد من

مصابيح الإضاءة وحرق أثاث نادى موظفى المحافظة .

قرر محافظ الإسكندرية أحمد كامل مواجهة الطلاب بنفسه لإقناعهم بعدم تصعيد التوتر، لكن الطلاب حاصروه فور وصوله للكلية، واحتجزوه فى حجرة الحرس التى كانت تحت سيطرة الطلاب، ولم يسمح له بالخروج، إلا بعد أن أمر بإطلاق سراح الطلاب الأربعة، وعندما وصلوا إلى كلية الهندسة انعقد مؤتمر طلابى وتحدث المحافظ، ولم يحقق المؤتمر نجاحا يذكر فى مواجهة الصخب الذى قوبلت به كلمة المحافظ الذى اقترح مقابلة وفد من الطلاب فى مكتبه مساء نفس اليوم.

واستمر اعتصام الطلاب فى كلية الهندسة، واستولوا على ماكينة طباعة الرونيو الخاصة بالكلية، وبدأوا فى كتابة سلسلة بيانات، وأعلنوا أن الكلية مقر دائم للاعتصام.

وأبلغ المحافظ القيادة السياسية برغبته فى إنزال الجيش للتصدى للطلبة، وقد وافق الرئيس جمال عبد الناصر على ذلك .

وقد اعترف الرئيس جمال عبد الناصر فى محضرى وقائع الجلستين ٩ و ١٠ للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى بأنه أمر قائد الجيش ليصدر أوامره لقائد القوات الجوية بفض تظاهرات الطلاب مستخدما رشاشات الطائرات .

وقد تمكنا من تسجيل شهادتين حول العنف الذى قوبلت به انتفاضة الطلبة الثانية:

أولاً: شهادة اللواء مصطفى الحناوى:

يقول اللواء مصطفى الحناوى قائد سلاح الطيران أنذاك فى شهادته:

كانت المظاهرات فى الإسكندرية على قدم وساق فى نوفمبر ١٩٦٨، وكنت أنا فى مقر قيادة القوات الجوية. أشتغل عادى .. بامضى أوراق مهمة .. رن جرس التليفون، وكان على الخط الفريق أول محمد فوزى القائد العام للقوات المسلحة .. (كان أستاذى فى الكلية وكان فيه جانب كبير من العنف .. ولا أقصد بالعنف الشدة .. فالشدة ممكنة دون عنف).

قال محمد فوزي:

- اللواء مرسى فى إسكندرية طلع بالقوات بتاعته عشان يفرق مظاهرات الطلبة ماقدرش، أنا باديك أمر أنك تفرق المظاهرات دى بضرب النار من طائرات الهليوكوبتر .. «الفريق فوزى قال كده وأنا الدم غلى فى دماغى ماحسيتش بنفسى..»

قلت:

- يانهار أسود .. سيادتك بتقول إيه .. نضرب الطلبة بالرشاشات المثبتة فى الهليوكوبتر (تعديل لنا أجريناه فى الهليوكوبتر ـ وعاوننا فيه أحمد فهيم الريان) أنت عارف سيادتك النتيجة ح تبقى إيه .. ح تبقى مجزرة .. حتبقى سلخانة ..الطلقة ٣٧ مللميتر .. مش ح تصيب واحد .. فى الزحمة ممكن تصيب عشرة ورا بعض .. دقيقتين أمشيهم فوق شارع أبو قير وشيط واحد أخلصه (ألف طلقة هى الحد الأدنى) ونبقى محتاجين الجيش الثالث عشان يشيل الجثث .. إحنا جايبين الطيارات نحارب بيها إسرائيل والا نضرب بيها ولادنا.

قال محمد فوزى:

- دى أوامر السيد الرئيس جمال عبد الناصر .. السيد الرئيس بيقول إن مظاهرات الطلبة الغرض منها إسقاطه .. ويطلب منا مساندته.

قلت وأنا مازلت مذهولاً:

- يا افندم دى ح تنكتب فى التاريخ .. زيها زى مذبحة القلعة .. مذبحة كوبرى عباس .. التاريخ ح يكتب أننا قتلة، والشعب مش ح يسامح

.. وافرض أديت أمر لضباط الهليوكوبتر بضرب الطلبة ورفضوا .. ح نحاكمهم !! ح نحاكم الستة وتسعين ضابطاً ح نحاكمهم يافندم ؟! لا يافندم أنا مش منفذ، وأنا جاهز يافندم تعملوا فى اللى انتوا عايزينه .. أنا عاصى ومش منفذ .. قال محمد فوزي:

- ح نقول إيه لعبد الناصر ؟!

قلت: - قول له يختار السجن اللى أتوجه له .. وأنا جاهز يافندم .. أنا عاصى ومش منفذ .. أنا لا لى فيهم ابن ولا أخ وبرضه ما أقدرش أضربهم.

قال محمد فوزي:

-اضرب فى المية.

قلت: - لو ضربت فى المية .. ما هو ضرب نار برضه يا فندم .. لا يا فندم.

قال:

- تصرف بأى طريقة ما تزعلش جمال عبد الناصر.

- وتصرفت .. وغضب جمال عبد الناصر .. وأسرّها فى نفسه .. قلت لقائد الهليوكوبتر فى الإسكندرية .. كل اللى ح تعمله .. أننا كنا بنطلع الطيارات من الدخيلة، تطير على البحر لحد ما توصل أبو قير .. خوفاً من أن تقع على مناطق سكنية إذا وقعت لا قدر الله .. قلت له ما تمشيش على البحر أمشى فوق البيوت ..

وما تحملش ذخيرة نهائياً، وتأكد بنفسك أن مفيش أى ذخيرة على الطائرات .. تأكد بنفسك .. كنت أخشى أن حد خسيس يحمّل الطيارات فى السر .. عشان يرضى أسياده، وطبعاً أسياده ح يحموه .. وده اللى حصل .. وأبلغته لمحمد فوزى، فقال:

- ماشى.

.. وطبعا فوزى بلغ جمال عبد الناصر، وغضب عبد الناصر، و أسرّها فى نفسه .. وقال لى الأستاذ هيكل: (عبد الناصر بعد المظاهرات قال لي: «أنـا ح أشيل الحناوى .. قلت له يافندم ده عمل حاجات كويسة كثيرة فى الطيران .. قال ح أشيله لأنه كان يعلم أن الهدف من مظاهرات الطلبة هو إسقاطى ولم يرد أن يساعدني»!!

(انتهت شهادة اللواء مصطفى الحناوى قائد القوات الجوية)

ثانياً: شهادة اللواء أحمد كامل

فى رواية المحافظ أحمد كامل عن الحدث يقول:

«ذهبت إلى الجامعة، كانت تحت حصار بوليس مكثف، لم أكن بعد وجها مألوفا كمحافظ، ولذلك وجدت إلى جوارى ضابط شرطة يطلق بندقية رش فى اتجاه الطلاب المعتصمين، خطفت البندقية من يده، وكادت تنشب معركة جانبية لولا أن رآنى سيد فهمى، مدير مباحث الإسكندرية آنذاك ووزير الداخلية بعد ذلك، قلت له: أخرج هذا الضابط بعيدا من هنا، وأحضر عاطف الشاطر من السجن فورا، جاءنى سيد فهمى بعاطف الشاطر وهو فى نوبة بكاء حادة، قال: ضربونى يا أفندم، قلت له: «كن رجلاً، ادخل إلى الجامعة الآن واجمع زملاءك فى القاعة الكبيرة وسوف أدخل وراءك لنجلس ونتناقش جميعا، جلست فى مواجهة الطلاب الغاضبين، وقد أحضروا طالبا ينزف من طلقات بندقيته، ثم قال أحدهم بصوت محرض وهو يشير إلى زميله: «انظر ماذا تفعلون؟ أى تفاهم يمكن أن يكون بيننا؟ قلت: أنا لا أعرف شيئا، ووزير الداخلية هو الذى أعطى تعليماته لمسؤولى الأمن بهذا الخصوص، وهو قرار خاطئ تماما، واستمر الحوار المنفعل، بينما مسؤولو الأمن خارج حرم الجامعة فى حالة ترقب وقلق، وهكذا اتصلوا بوزير الداخلية واتصلوا بمكتب الرئيس، وقالوا: المحافظ دخل مبنى الجامعة، ونخشى أن يفتك به الطلاب الغاضبون، ماذا نفعل؟ هل نقتحم الجامعة لإنقاذه؟ ونقل سامى شرف على الفور الموقف إلى الرئيس

عبدالناصر، وكان رده: «لا اقتحام، اتركوه يتصرف وحده».

وصل الحوار إلى طريق مسدود، وخرجت من الجامعة بانطباع أن تجربة الحوار لن تحقق النتائج المنتظرة؛ فاتصلت بسامى شرف وقلت له:

- «أبلغ الرئيس أننى أطلب تدخل الجيش لإنهاء الاعتصام .»

بعد دقائق جاء رد سامى شرف:

- «الرئيس أمرنى أن أتصل بالفريق أول محمد فوزى القائد العام للقوات المسلحة وأن أبلغه أن يتصل بك» .

بعد دقائق أخرى كلمنى الفريق أول محمد فوزى وقال:

- « لقد وضعت قائد المنطقة العسكرية الشمالية تحت قيادتك، وأخبره بطلباتك وسوف يقوم بتنفيذها على الفور» .

قلت بعدها للقائد أن يعطى أوامره لقيادة الطيران فى المنطقة ليتم إرسال عدد من طائرات الهليكوبتر فوق مواقع إعتصام الطلبة .. كما طلبت منه وضع بعض قوات الجيش لتدخل إلى المحافظة وتمر

بدباباتها وأسلحتها فى استعراض القوة أمام كلية الهندسة ... عندما وصلت مجموعات طائرات هليكوبتر فوق كلية الهندسة شاركت الطبيعة فى إخراج مسرحى للموقف فقد تزامن معها رعد وبرق ومع أصوات الرياح والسحب تصور الطلاب أن الطيران قد بدأ القصف والهجوم فى الوقت الذى مرت فيه بعض قوات الجيش أمام الجامعة وتمركزت بعض الوحدات فى الاستاد الرياضى المجاور، ورن جرس التليفون فى مكتبى .. كان المتحدث أحد قادة الاعتصام .. قال:

- « لقد قررنا إنهاء الاعتصام .».

(انتهت شهادة اللواء أحمد كامل محافظ الإسكندرية)

***

انتهى الاعتصام فى الحقيقة لأسباب عملية قاهرة تضاف لما ذكره محافظ الإسكندرية من التهديد باستخدام القوة، وما قام به من ترتيبات فعلية فى هذا الصدد، فقد تعرض الطلبة لحالة من الضغط والرعب غير مسبوقة فى تاريخ مصر إضافة، إلى قلة طعام الإفطار فى أيام رمضان وانقطاع الماء والكهرباء والبرد والأمطار الغزيرة؛ مما جعل الطلبة يتغطون بالسجاجيد رغم قذارتها وحملها للأتربة، والضغط الذى مارسه عليهم أولياء أمورهم وانسحاب رئيس اتحاد الطلاب من الاعتصام !!

وفى القاهرة لم تصل الأحداث إلى ما وصلت إليه أحداث الإسكندرية من مدى، فبينما كان طلبة هندسة وطب القاهرة يستعدون للاعتصام بعد صدور بيانهم فى ٢٣ نوفمبر أُغلقت جامعة القاهرة وتم تفريق الطلبة قبل أن يتمكنوا من التجمع !!

وتم إحالة طلبة الإسكندرية المقبوض عليهم إلى القضاء، غير أنه لم تجر أية محاكمات، وبعد حوالى ثلاثة أشهر من الحبس فى سجن الحضرة أطلق سراح الطلاب، بينما أرسل زعماؤهم لقضاء فترة التجنيد الإجبارى فى القوات المسلحة !!

.. وتم تجنيد عاطف الشاطر رئيس اتحاد الطلاب جامعة الإسكندرية جندى مؤهلات متوسطة باعتباره لا يحمل مؤهلا عالا بعد فصله من كلية الهندسة وإلحاقه بإحدى وحدات الجيش فى برنيس على حدود مصر والسودان، وقد هاجر إلى المغرب الشقيق بعد انتهاء فترة العقوبة وحصوله على مؤهله !!

كان مكمن الخطورة فى هذا الأمر هو تحويل الجيش إلى مؤسسة عقابية، وهو ما أضاف غصة إلى حلوق المصريين الذين كانت مرارة الهزيمة ما زالت تلون طعم أيامهم بمذاق العلقم .

بعد الفض الوحشى لاعتصام طلاب هندسة الإسكندرية فى نوفمبر ١٩٦٨

سادت حالة من الركود السياسى والصمت الطلابى لم يقطعها سوى هبة طلبة كلية الصيدلة جامعة الإسكندرية للمطالبة بعزل الليثى عبد الناصر من أمانة تنظيم الاتحاد الاشتراكى بالإسكندرية بعد أن فاحت رائحة فساده ، وتم تغليف هذا المطلب بمطالب عامة وشعارات وطنية !!

وهبة طلبة كلية الطب البيطرى جامعة القاهرة للمطالبة بمطلب فئوى بالمناداة بصرف بدل العدوى للأطباء البيطريين أسوة بالأطباء البشريين.

كان الفارق بين انتفاضة العمال والطلبة فى فبراير ١٩٦٨ ، وانتفاضة الطلبة فى فبراير ١٩٦٨ أن الأولى كانت انتفاضة من داخل النظام والثانية كانت تمرداً على النظام.

تظاهرات ١٩٧٢:

اندلعت الانتفاضة فى يناير ١٩٧٢ بعد خطاب الرئيس أنور السادات فى يوم الخميس ١٠ يناير ١٩٧٢ والذى برر فيه عجزه عن الوفاء بوعده فى جعل عام ١٩٧١ «عام الحسم» بسبب اندلاع الحرب الهندية الباكستانية، وبرر ذلك أن العالم لم يكن فيه متسع لاندلاع حربين كبيرين فى آن واحد، وأن الحليف السوفيتى كانت تشغله الحرب الهندية الباكستانية إلى الحد الذى لا يستطيع فيه تقديم مساعدة كافية، خاصة أنه فى حال حدوث هجوم

مصرى بمساندة السوفييت على الأراضى التى احتلتها إسرائيل فسوف يثير رداً انتقاميا من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، ووصف هذه الحالة بـ «الضباب» الذى أعاق قدرته على التحرك !!

وكان رد فعل الطلاب غاضباً، كان الأمر بمثابة استفزاز لهم، ورأى الطلبة أن الضباب يكمن فى السياسات التى ينتهجها السادات؛ فكتب أحد الطلاب مقالاً بعنوان:

«ليتك لم تتحدث يا سيادة الرئيس»

وفجر هذا المقال حلقات النقاش فى كلية الهندسة، ولم يكن الطالب كاتب المقال مصنفاً سياسيا تحت أى فصيل... ولم يكن أيضًا من كتاب المجلات المعروفين، كان اللافت فى مقال ذلك الشاب طرحه لمقدمات سليمة تماما وراح ينطلق منهاً بخطوات واثقة وهادئة وبأسلوب رصين لعرض استدلالاته الواعية بطبيعة الأمور؛ ليصل إلى نتائج منطقية اختتم بها مقاله ... سطر هذا الشاب مقاله فى أكثر من عشرين صفحة فولسكاب بقلم من الفولماستر... وعلق المقال بالدبابيس، والتف الطلاب بأعداد غفيرة حول المقال فى حلقات نقاشية.. بخلاف ما كان يحدث فى الماضى حيث كان لا يرى أكثر من عدة حلقات هزيلة للنقاش أمام مجلات الحائط وكل حلقة تضم حوالى ٥ – ٧ طلاب من الطلاب المتسكعين من داخل الكلية أو من خارجها ... أما بعد تعليق هذا المقال الأيام الأربعة كان من الممكن أن تشاهد أكثر من ٢٠ حلقة، وكل حلقة تضم أكثر من ٧٠ وبعد أن ذاعت شهرة المقال توافد الطلبة من خارج الكلية للاطلاع عليه.. الجميع يتحدثون

فى كل شيء، والكل يطرح تساؤلات منطقية ومشروعة إعمالاً بالحق الإنسانى والوطنى التساؤل:

- إلى متى تستمر حالة اللا سلم واللا حرب؟

- ما معنى الضباب الهندى الباكستانى الذى تحدث عنه رئيس الجمهورية؟ وتداول الطلاب نكتة مفادها:

« أن عربجى وقف بعربته الكارو وسط كوبرى قصر النيل ، فلما جاء رجل المرور ليحثه على السير .. قال له العربجى: الضباب قافل الطريق!!

وتساءل رجل المرور: فين الضباب ؟! الشمس طالعة .

قال العربجى: إسأل الحمار!! .» .

- كيف تكون هناك حرية صحافة وصحف الدولة ليست أكثر من ثلاث صيغ لمنشور واحد؟!

- هل شهداؤنا فى ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف ١٩٦٩ راحوا فطيس!!

وتحولت البؤر المتناثرة من حلقات نقاش الطلبة إلى مؤتمر طلابى، وحضر الدكتور كمال أمين الشباب فى الاتحاد الاشتراكى ووزير الشباب إلى مدرج الساوى (أضخم مدرج بالكلية)..... واستمع إلى تساؤلات الطلاب وآرائهم، ووجه إليه الطلاب وابلاً من الأسئلة عجز عن الإجابة عنها،ولم يكن لديه سوى جملة واحدة:

«سأنقل وجهة نظركم للجهات العليا وللقيادة السياسية.».

وسخر الطلاب من الوزير ونعتوه بـ «البوسطجي»، وخرج الوزير من المؤتمر وسط الصفير وصيحات السخرية والإهانة .

فى تلك الفترة عين السادات المهندس سيد مرعى أميناً للاتحاد الاشتراكى، وعين د. عزيز صدقى رئيساً للوزراء لإعداد الدولة للمواجهة، لكن إجراءات تشكيل «وزارة المواجهة» من التكنوقراط لم تثن الطلاب عن عزمهم الاعتصام، ففى الليلة السابقة على المؤتمر المزمع عقده، أقر الطلبة المعتصمون بكلية الهندسة اقتراحاً بتشكيل «**اللجنة الوطنية العليا لطلاب جامعة القاهرة**» التى حلت محل اتحاد الطلاب الرسمى (بشكل غير رسمي)، وهو كيان غير رسمى تم اقتراحه من الطالب أحمد عبد الله رزة الطالب بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية (المحسوب على اليسار)، الذى هبط على قيادة الاعتصام بكلية الهندسة بشكل مريب؛ ليأخذ بزمام قيادة الاعتصام، ويجرى تشكيل «اللجنة الوطنية العليا لطلاب جامعة القاهرة» من قيام طلاب كل كلية بانتخاب خمسة طلاب انتخابًا حرًا مباشرًا.... ليكون هؤلاء الخمسة هم اللجنة الوطنية للكلية...... على أن ينتخب الخمسة

واحدًا من بينهم ليكون ممثلاً عن الكلية فى اللجنة الوطنية العليا لطلاب جامعة القاهرة ...... والتى ستتكون من المندوبين المنتخبين عن جميع الكليات»، ويتم الدفع بالطالب أحمد عبد الله رزة الذى تحوطه علامات استفهام إلى رئاسة تلك اللجنة.

كانت تلك اللجنة تتمتع بسلطات واسعة ورعاية من المسئولين على كافة المستويات، وأصبحت اللجنة الوطنية العليا لطلاب مصر هى القيادة الشرعية لجامعة القاهرة والمتصرف فى شئون الجامعة؟ وأن اتحاد الطلبة المنتخب فقد شرعيته!!، وأصبح د. حسن إسماعيل رئيس جامعة القاهرة يتلقى الأوامر من «العيال بتوع اللجنة»، ويصدر ما يملونه عليه من قرارات!!

... الغريب فى الأمر والذى يسترعى انتباه الملاحظ المدقق هو أنه مع نهاية عام ١٩٧٢ اختفت «اللجنة الوطنية العليا للطلاب»... واختفت اللجان الوطنية التى انتخبت من مؤتمرات جماهيرية... تم حلها جميعاً بدون إعلان !!.. ولم يقدم قادة الحركة الطلابية تفسيراً لتلك المسألة !!

كان من الواضح أن الطالب أحمد عبد الله رزة قد تم تدريبه وإعداده جيداً من خلال التنظيمات السرية الشيوعية، التى تعمل تحت الأرض، والتى أسهمت فى تطوير أداء الحركة الطلابية، وتطورت معها حتى بلغت ذروة نضجها فى أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ ، حيث بدأ الطالب أحمد عبد الله رزة رئيس «اللجنة الوطنية العليا للطلاب»... فى تشكيل ثلاث

لجان للاعتصام:

لجنة إعاشة... لجنة دعاية وإعلان... لجنة نظام واتصالات بالكليات الأخرى، وهو ما يعكس سلوكاً تنظيمياً لقائد ميدانى على الأرض فى الفكر والحركة، يصعب الوصول إليه من الطلبة العاديين من الكتلة الضخمة المشاركة فى الاحتجاج !!

وتم نقل مقر الاعتصام من مدرج الساوى أكبر مدرجات هندسة القاهرة، والاعتصامات المتفرقة فى مختلف كليات الجامعة، وتنظيم مؤتمر طلابى، وناشد الطلبة رئيس الجمهورية ودعوه لحضور المؤتمر، وتم طبع البيان الأول للمؤتمر بمطبعة الجامعة، واختار المؤتمر لجنة صغيرة لصياغة « وثيقة طلابية» تضم التوصيات والمطالب التى طرحت فى مختلف مؤتمرات كليات الجامعة، وتشكل وفد من طلابى لتوصيل الوثيقة إلى الرئيس فى منزله بالدقى، وبدأ الاعتصام .

وبعد فشل الطلاب فى حث الرئيس على مقابلتهم، وفى مقابل حالة من الإهمال المتعمد وافقوا على حل وسط اقترحه اللواء ممدوح سالم وزير الداخلية، ونقله إليهم د. حسن إسماعيل رئيس الجامعة وهو اقتراح يحمل فى جوهره فكر الخديعة، الذى مارسه النظام مع الطلبة فى انتفاضة فبراير ١٩٦٨؛ بما يعنى أن الحركة الطلابية كانت فاقدة الذاكرة، فقد طلب منهم تشكيل وفد من الطلبة للذهاب إلى مجلس الشعب لتقديم وثيقتهم، وتولت أتوبيسات الجامعة نقل أعضاء الوفد الطلابى إلى مقر المجلس .

وبدأت جلسات بين الطلبة وأعضاء المجلس سادها التملق تارة والسخرية والاستهزاء والهجوم على الطلبة تارة، وأخيراً تم التوصل إلى اتفاق وهو أن يتم إدخال بعض التعديلات على الوثيقة حتى تنشر فى صحف الغد فى مقابل إنهاء الاعتصام، وعاد الوفد إلى الجامعة تاركاً اثنين من الطلاب للقيام بالتعديلات بالاشتراك مع الدكتور جمال العطيفى رئيس مجلس الشعب، وبعد ساعات تم الاتفاق على الوثيقة المعدلة من أجل النشر، وقبل انصراف الطالبين بدقائق أخبرهما العطيفى أنه لن يتم نشر أى شيء، وأن الرئيس السادات سوف يعقد اجتماعا مع ممثلى القوى الشعبية، ومن بينها الطلاب لمناقشة الوضع فى غضون يومين، كما أبلغهم أيضا أنه وصل إلى المجلس وفد طلابى ثان يتبع اتحاد الطلاب حاملاً وجهة نظر أخرى مختلفة تماما، وأدرك الطلبة حجم الخديعة وقرروا استمرار الاعتصام .

بعد ذلك بساعات فى فجر ٢٤ يناير قامت قوات الأمن بمداهمة الجامعة، واقتادت الطلاب مرفوعى الأيدى فى خمسة وعشرين عربة من عربات نقل السجناء إلى معسكر الأمن المركزى بالدراسة حيث تم احتجازهم فى أحد إسطبلات الخيول !!

وبرغم قرار إغلاق الجامعة وبدء أجازة نصف السنة، تدفق الطلاب على الجامعة؛ ليكتشفوا أن زملاءهم قد قبض عليهم؛ فانطلق الطلاب إلى ميدان التحرير، واستمرت المظاهرات طول اليوم وفى المساء حدث اعتصام حول قاعدة التمثال فى وسط ميدان التحرير وشكلت لجنة وطنية ثانية مؤقتة لتنظيم هذا الاعتصام .

كانت الأعداد فى ميدان التحرير أكبر من أى توقع وكان تعاطف الجماهير مع الطلبة سافراً؛ بما جعل قوات الأمن تستشعر القلق من مداهمة الجماهير لمحبس الطلبة وإخراجهم بالقوة؛ فتم تجميع الطلبة ونقلهم إلى معهد أمناء الشرطة بمنطقة سجون طرة...

فى ميدان التحرير كان التجمع الجماهيرى حول قاعدة التمثال فى وسط ميدان التحرير أقرب إلى احتفالية؛ فغنى الشيخ إمام عيسى:

« يا عم حمزة رجعوا التلامذة للجد تاني

لا كورة نفعت ولا أونطة .. ولا مناقشة وجدل بيزنطة !!

رجعوا التلامذة ورد الجناين .. يا عم حمزة»

.. وغنى فخرى فايد أغنية «فى حبك يا مصر»، وألقى الشاعر أمل دنقل قصيدته بعنوان: «الكعكة الحجرية» فى إشارة إلى قاعدة التمثال الجرانيتية الخالية التى ظلت تميز الميدان لسنوات طويلة، وأزيلت أثناء أعمال الحفر لمشروع الخط الأول لمترو الأنفاق، ولم تعد إلى الآن، ولم يُعرف مصيرها ، .. وقال فيها:

«أيُّها الواقفون على حافة المذبحه

أَشْهِروا الأسلحه!

سقطَ الموتُ، وانفرط القلبُ كالمسبحة

والدّمُ انساب فوق الوشاحْ!

المنازلُ أضرحةٌ،

والزنازن أضرحةٌ،

والمدى.. أضرحة

فارفعوا الأسلحة

واتبعوني!

أنا ندمُ الغدِ والبارحة

رايتي: عظمتان.. وجمجمةٌ،

وشعاري: الصباحْ!

دقّتِ الساعةُ المتعبة

رفعتْ أمُّهُ الطيّبة

عينَها..

(دفعته كعوبُ البنادقِ فى المركبة)!

....

دقّتِ الساعةُ المتعبة

نهضتْ، نسَّقتْ مكتبَهْ..

(صفعتْه يدٌ..

- أدخلته يدُ اللهِ فى التجربه -)

دقّتِ الساعةُ المتعبة

جلست أمُّهُ، رتّقتْ جوربَه..

(وخزته عيونُ المحقّقِ..

حتى تفجَّر من جلدهِ الدمُ والأجوبة !)

....

دقّتِ الساعةُ المتعبة!

دقّتِ الساعة المتعبة!

*****

عندما تهبطين على ساحة القومِ،

لا تبدئى بالسلامْ

فهمُ الآنَ يقتسمون صغاركِ

فوق صحافِ الطعامْ

بعد أن أشعلوا النارَ فى العشِّ..

والقشِّ..

والسنبلة..

وغداً يذبحونكِ.. بحثاً عن الكنز

فى الحوصلة!

وغداً تغتدى مدنُ الألفِ عامْ

مدناً.. للخيامْ

مدناً ترتقى دَرَجَ المقصلة!

****

دقّتِ الساعة القاسية

وقفوا فى ميادينها الجهمةِ

الخاوية

واستداروا على درجاتِ النُّصُبْ

شجراً من لَهَبْ

تعصفُ الريحُ بين وريقاته

الغضّةِ الدانية

فيَئنُّ: «بلادى.. بلادي»

(بلادى البعيده!)

دقّتِ الساعةُ القاسية

«انظروا»، هتفتْ غانية

تتمطّى بسيّارة الرقم الجمركى،

وتمتمتِ الثانية:

سوف ينصرفون إذا البردُ

حلَّ.. ورانَ التَّعبْ

....

دقّتِ الساعةُ القاسية

كان مذياعُ مقهىً يُذيع أحاديثَه البالية

عن دُعاةِ الشَّغَبْ

وهمُ يستديرونَ،

يشتعلون - على الكعكة الحجرّية - حول النُّصُبْ

شمعدانَ غضبْ

يتوهّجُ فى الليلِ..

والصوتُ يكتسح العتمةَ الباقية

يتغنّى لليلةِ ميلادِ مصرَ الجديدة!

****

اُذكريني!

فقد لوّثتنى العناوينُ فى

الصحف الخائنة!

لوّنتْنى.. لأنى منذ الهزيمة لا لونَ لي

(غيرُ لونِ الضياعْ)

قبلها، كنت أقرأُ فى صفحة الرملِ

والرملُ أصبح كالعُمْلة الصعبة،

فاذكرينى، كما تذكرين المهرّبَ..

والمطربَ العاطفى..

وكابَ العقيد.. وزينةَ رأسِ السنة

اذكرينى إذا نسيتْنى شهودُ العيانِ

ومضبطةُ البرلمانِ

وقائمةُ التهمِ المعلَنَة

والوداعَ!

الوداعْ!

****

دقّتِ الساعةُ الخامسة

ظهر الجندُ دائرةً من دروعٍ وخُوذاتِ حربْ

ها همُ الآنَ يقتربون رويداً.. رويداً..

يجيئون من كلّ صوبْ

والمغنّون - فى الكعكة الحجريّة - ينقبضونَ

وينفرجونَ

كنبضةِ قلبْ !

يُشعلون الحناجرَ،

يستدفئون من البرد والظلمةِ القارسة

يرفعون الأناشيدَ فى أوجه الحرسِ المقتربْ

يشبكونَ أياديهمُ الغضّةَ البائسة

لتصيرَ سياجاً يصدُّ الرصاصَ !

الرصاصَ..

الرصاصَ..

وآهِ..

يغنّون: «نحن فداؤكِ يا مصرُ»

«نحن فداؤ»....

وتسقطُ حنجرةٌ مُخرَسة

معها يسقطُ اسمكِ ـ يا مصرُ ـ فى الأرضِ

لا يتبقّى سوى الجسدِ المتهشّمِ والصرخاتِ

على الساحة الدامسة!

دقّتِ الساعةُ الخامسة

....

دقّتِ الخامسة

....

دقّتِ الخامسة

وتفرّق ماؤكَ - يا نهرُ - حين بلغتَ المصبْ!

****

المنازل أضرحةٌ،

والزنازن أضرحةٌ،

والمدى أضرحة
فارفعوا الأسلحة

ارفعوا الأسلحة»

وفى ساعة متأخرة من الليل نادى قائد الأمن المركزى عبر مكبرات الصوت بضرورة فض الاعتصام، وأعطى المعتصمين فسحة نصف ساعة من الوقت قبل الاقتحام، وتفرق المعتصمون إلى الشوارع الجانبية!!

.. وفى الصباح أصدرت الداخلية قراراً بمنع المظاهرات جاء فيه:

«حرصت سلطات الأمن بتوجيه من القيادة السياسية على عدم التدخل فى أنشطة الحركة الطلابية تقديرا للدوافع الوطنية، فضلا عن أن ما ينادون به أجمعت عليه أمتنا قيادة وشعباً».

تظاهرات الطلبة فى يناير ١٩٧٣:

بدأت الدراسة فى آداب القاهرة فى الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧٢، كان أعضاء فريق الجوالة بالكلية يقومون بتعليق اللوحات الإرشادية، ومساعدة الطلبة الجدد فى إنهاء الإجراءات، وكان أعضاء الأسر يحضرون للترحيب بالطلبة الجدد والتعريف بأنشطة الأسر والدعوة للانضمام إليها، وكانت هناك العديد من مجلات الحائط المتناثرة على جدران فناء الكلية تحوطها بعض البؤر المتناثرة من الحلقات النقاشية.

لكن كان من الواضح ملاحظات عدة أهمها:

أولاً: أن الانقسام أصبح واضحاً فى الحركة الطلابية؛ فقد انقسمت الحركة الطلابية إلى أربع فصائل:

١ ـ مجموعة من العناصر اليسارية المتماسكة التى تربطها روابط تنظيمية مع المنظمات اليسارية والماركسية .

٢ ـ مجموعة من العناصر اليسارية المستقلة ذات الميول اليسارية والماركسية .

.. وكان يمثل كلا التيارين السابقين تكوين اسمه «نادى الفكر الاشتراكي».

٣ ـ الناصريون الذين برزوا فى تكوين اسمه «نادى الفكر الناصري» بعد الانقلاب الذى أحدثه السادات من داخل السلطة، واعتقل كل القيادات المحسوبة على ممارسات الحقبة الناصرية .

٤ ـ حركة راديكالية تلتحف برداء الإسلام على أسس الأصولية الإسلامية، أطلق عليها «الجماعة الإسلامية» أسوة بـ «الجماعة الإسلامية» التى أسسها أبو الأعلى المودودى فى باكستان .

ثانيا: أن اليسار لم يعد مهيمناً على الحركة الطلابية وموجها لحركتها، ولكنه مجرد فصيل منها، خاصة أن اليسار بكل فصائله عجز عن تطهير مواقفه من الشوائب العالقة به من الدعوة لإنشاء دولة إسرائيل، بزعم وحدة الطبقة العاملة فى مصر وإسرائيل !!، وإن ادعى لاحقاً الدفاع عن الحق الفلسطينى !!

ثالثاً: أن كل فصائل الحركة الطلابية تسودها حالة من الضعف الفكرى، وارتفاع النبرة الخطابية، وتدنى مستوى التحليل السياسى والاقتصادى، وغلبة روح التحريض، والعجز عن تجسيد فكرة الالتحام بالجماهير .

رابعا: أن كل فصائل الحركة الطلابية ترفع شعار الديمقراطية أو الشورى ـ وفق تداول جماعات الإسلام السياسى ـ ولا تعمل به، فكان أسلوب التحاور فيما بينها قائماً على الشتائم والتكفير والتحقير وسوء لغة الحوار والاتهام بالعمالة والمباحثية وتمزيق الملابس والضرب بالأيدى والعصى والمدى والسكاكين والجنازير .

مع اليوم الأول للدراسة استرعى انتباهى لافتة ضخمة علقت فى مدخل فناء كلية الهندسة جامعة القاهرة كتب عليها بالخط العريض:

«حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان»

كانت الكلمات أبعد من أن تطالها مفاهيمنا، وبالتساؤل عرفنا أن حزب الله هو التيار الإسلامى المتحالف مع الدولة، ذلك التصالح بينه وبين

الجماعة بواسطة الملك فيصل، وأسفر عن اتفاق مرسى مطروح الذى أفرج السادات بمقتضاه عن ١١٨ من معتقلى الإخوان المسلمين وأعاد للجماعة..... ومغازلة لهذا التيار كان السادات يبدأ خطابه بكلمة: «باسم الله»..... وينهى خطابه بالدعاء الدينى.

وكان المعلوم لى أن التيار الإسلامى هو الإخوان المسلمون فقط بعد أن قام «الإخوان المسلمون» بالاستحواذ على الكيان الوليد الذى أطلق عليه اسم: (الجماعة الإسلامية) وإلحاق عناصرها بـ «الإخوان المسلمين» بعد لقاء تنظيمى تم بين الطالب عبد المنعم أبو الفتوح (الطالب بكلية الطب، وأحد الكوادر القيادية بالجماعة) وكمال السنانيرى (أحد القيادات التاريخية لجماعة «الإخوان المسلمين»، وزوج السيدة أمينة قطب شقيقة الأستاذ سيد قطب) فى أحد محلات الأحذية بوسط القاهرة .

أما حزب الشيطان كما فهمت؛ فكان الطلاب الماركسيين والناصريين.

كانت الجماعة الإسلامية التى أمر بتأسيس نواتها الرئيس السادات وأمر المهندس عثمان أحمد عثمان بتخصيص دعم غير مسبوق لها من ميزانية شركة «المقالون العرب» على أن تخصم تلك الأموال من الوعاء الضريبى لـ « المقاولون العرب»، وتلك لعبة يجيدها المهندس عثمان أحمد عثمان؛ فقد كان ينفق ببذخ من الأموال المخصومة من الوعاء الضريبى

لـ « المقالون العرب» ومن أموال الشركة على حفلات الجنس الجماعى و «أعمال الكنترول» للإيقاع بضحايا صلاح نصر مقابل التغاضى عن فساده وإسناد بعض العمليات لشركته بالأمر المباشر !!

كان مهندس تنظيم الجماعة الإسلامية هو محمد عثمان إسماعيل الذى كانت تحوطه شبهات الانتماء إلى «الإخوان المسلمين» رغم أنه لم يثبت وجود اسمه فى سجلات الجماعة !!

وتلك إحدى المناورات التنظيمية التى أرسى أسسها حسن أفندى البنا؛ فقد كان يأمر بعدم قيد بعض المنتمين للجماعة فى سجلاتها بغرض إخفائهم والأمثلة كثيرة ومنها:

الكشف عن حقيقة
محمود العيسوي:

وبأسلوب المجرم المحترف، بدأ حسن أفندى البنا جرائمه فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ باغتيال د. أحمد ماهر باشا فى جريمة من النوع الذى يطلق عليه «الجريمة النظيفة»، وهى نوع من الجرائم التى لا يترك المجرم فيها أثرًا يدل عليه، فقد اغتال رجال البنا د. أحمد ماهر دون أن يتركوا بصمة واحدة، وألصقت التهمة بالحزب الوطنى لسنوات طويلة، وظل الاعتقاد سائدًا بين الدارسين والمؤرخين أن اغتيال د. أحمد ماهر بعيد تماما عن جماعة الإخوان المسلمين، وظل السر مكتوما لأكثر من أربعين سنة إلى

أن كشف الشيخ سيد سابق «مفتى الدم» فى حديث لجريدة «المسلمون» أن اغتيال ماهر نفذه «النظام الخاص» بالإخوان المسلمين، وأن محمود العيسوى كان منخرطا «النظام الخاص» بشكل سرى، وهو نفس ما أكده الشيخ الباقورى فى مذكراته التى نشرها مركز الأهرام للدراسات بعنوان:»بقايا من ذكريات» ، وأكده أيضا الأستاذ خالد محمد خالد فى إحدى حلقات مذكراته التى نشرتها جريدة الوفد بتاريخ ١٥ / ١٩٩٢/١٠، .. وأعاد نشرها فى كتاب بعنوان: «قصتى مع الحياة» ، أكد فيها أن جريمة اغتيال د. أحمد ماهر كانت من تخطيط، وتنفيذ «النظام الخاص»، وأن العيسوى كان عضواً بالإخوان، وفدائياً فى النظام الخاص، وأن النظام الخاص كان بارعاً فى التنكر؛ فهو بعد تدريب أعضائه على كافة فنون الإرهاب، يأمر بعضهم بأن يلتحق ببعض الأحزاب والجماعات حتى إذا اختير يوما لعمل من أعمال الاغتيال والإرهاب لم يبد أمام القانون والرأى العام من أعضاء الإخوان ..

الكشف عن حقيقة

اللواء المــواوى:

كان اللواء أحمد على المواوى، قائد القوات المصرية فى حرب فلسطين ـ وكان من العناصر المنتمية لـ «الإخوان المسلمين» سراً فى ذلك الوقت، ورفض خطة البكباشى أحمد عبد العزيز للاستيلاء على القدس بل واختلفا اختلافا شهد عليه أعضاء القيادة العامة وقتها، الخلاف العنيف

الذى حدث بين اللواء أحمد على المواوى، والبكباشى أحمد عبد العزيز، وكيف كان يعطى الأمر بتحرك ثم ما إن تشرع القوات الصادر لها الأمر بالتنفيذ، حتى يلغيه أو يعدله أو يأمر بغيره، وهو ما يوصف عسكريا بدفع القوات للإرهاق والفوضى وبالتالى السير نحو هزيمة حتمية .

وهذا يقودنا للتساؤل عن الكيفية التى استدرج بها اللواء أحمد على المواوى البكباشى أحمد عبد العزيز إلى حتفه برصاص مصرى !!

وقد أعلن اللواء أحمد على المواوى انضمامه علنا لجماعة «الإخوان المسلمين» بعد تقاعده، وجرى الإعلان عن ذلك فى حفل ضخم أقيم بمقر الجماعة بالأسكندرية، وكان المواوى صوتهم الذى ارتكنوا إليه فى ادعاءاتهم بمشاركة قوات منهم فى حرب ١٩٤٨، وادعاءات البطولات!!؛ ومن ثم كتابة التاريخ بما يتراءى ومصلحة الجماعة.

حكاية الطالبين

محمد عبد القدوس

وزياد عـــــــودة:

توقفت طويلاً أمام حكاية الطالبين محمد عبد القدوس الطالب بكلية الحقوق وابن الكاتب إحسان عبد القدوس (حقوق ١٩٧٤)، والطالب زياد عــــــــودة ابن القاضى عبد القادر عودة الذى قضت محكمة الغدر

بإعدامه فى حادث المنشية ١٩٥٤ .

انضم محمد عبد القدوس إلى جماعة «الإخوان المسلمين» والذى لقى ترحيبا من المرشد الثالث للجماعة عمر التلمسانى بزعم أن انضمامه أفضل دعاية للجماعة مع التشديد على عدم التعويل عليه أو تكليفه بمهام تنظيمية !!

كان محمد عبد القدوس مثالاً للشخص التافهة الذى يقوم بحركات بلهاء فى المحافل منها توزيع الإمساكيات وحمل العلم ومكبر الصوت فى مناسبات احتجاجية دون صياغة بيان محدد لما يدعيه من احتجاج، مما حدا بالبعض بنعته بـ «عبيط القرية»، وبعد أن تم تعيينه عضوا فى المجلس القومى لحقوق الإنسان براتب شهرى ١٥ ألف جنيه شهريا فى ٢٠١٣ بعد إزاحة الإخوان وخلع الرئيس المنتخب د. محمد مرسى خرس صوته ولم يعد يُرى له وجه !!

فى المقابل لحالة محمد عبد القدوس كانت حالة الطالب زياد عودة ابن القاضى عبد القادر عودة الذى انضم إلى نادى الفكر الناصرى واعتنق فكر قاتل أبيه .. وكلا الطالبين مثالان لحالة ما من التخفى .. ربما أو الخروج من عباءة الآباء .. أو اختراق كيانات لحساب الغير .. ربما !!

***

لم ينكر محمد عثمان إسماعيل حقيقة الدور الذى قام به فى تكوين الجماعات الإسلامية، وبرر ذلك بأنه أرادها إسلامية وليست إرهابية، لكنها مارست كل أنواع البلطجة على شعب مصر؛ فليس غريبا بعد ذلك خروج رءوس التنظيمات الإرهابية من جامعة أسيوط ليقتلوا الرئيس السادات فى يوم ٥ أكتوبر ١٩٨١، ويرتكبوا مذبحة مديرية أمن أسيوط البشعة التى راح ضحيتها ١٨١ فى صبيحة عيد الأضحى المبارك فى ٨ أكتوبر ١٩٨١، وأن يقود أفرادها التمرد المسلح ورفع السلاح على الدولة وقيام أفرادها بالعديد من الأعمال الإرهابية التى نفذها عصام دربالة، ناجح إبراهيم، كرم محمد زهدى، عاصم عبد الماجد، فؤاد محمود حفنى، ومحمد ياسين همام، حمدى عبد الرحمن، أسامة إبراهيم إبراهيم وأحمد حسن دياب، وغيرهم بالإضافة إلى عديد من إرهابيى الجماعات الإرهابية التى خرجت من عباءتهم فى القاهرة عبود الزمر ومحمد عبد السلام فرج وأيمن الظواهرى قائد القاعدة.

تشير التقارير الأمنية إلى أن محمد عثمان إسماعيل كان من الإخوان وله صلات وطيدة بقياداتها مثل المرحوم محمد عبد العظيم لقمة وعمر التلمسانى ومصطفى مشهور وغيرهم، فقد كان محمد عثمان إسماعيل عضوا قياديا نشطا فى شعبة الإخوان فى أسيوط.

ولكن السادات تجاهل كل ذلك وعينه محافظا لأسيوط، وجدد له لثلاث فترات متتالية، وعينه برتبة وزير، رغم أن المحافظين وقتها كانوا برتبة نائب وزير، وقبل ذلك كان قد عينه أمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكى فى ١٩٧٢/٧/١.

وقد اتخذ قرار إنشاء «الجماعة الإسلامية» فى اجتماع فى مقر الاتحاد الاشتراكى حضره السيد محمد إبراهيم دكرورى ومحمد عثمان إسماعيل، واتخذ القرار السياسى بدعم نشاط الجماعات الدينية ماديا ومعنويا؛ واستخدامها كحائط صد فى مواجهة المد الشيوعى وهيمنته على الحركة الطلابية .

وتمت الاستعانة بالخبرات التنظيمية لكل من: المهندس سيد مرعى، وعلوى حافظ عضو مجلس الشعب، ود. محمود جامع، ود. أحمد كمال أبو المجد، وأعضاء من لجنة التنظيم داخل الاتحاد الاشتراكى، وأمناء الشباب فى المحافظات، وضباط من مباحث أمن الدولة، وأعضاء بعض الاتحادات الطلابية التى تهيمن عليها السلطة.

لم تكن كوادر «الجماعة الإسلامية» المصنوعة قادرة على إدارة حوار مقنع أو منتج؛ فكانت تكتفى بتمزيق مجلات الحائط التابعة للفصائل او الأسر الأخرى والاعتداء عليهم بالجنازير والسكاكين والمدى !!

كان العنف هو القاسم المشترك بين أعضاء «الجماعة الإسلامية» والجماعات اليسارية (جماعة أنصار الثورة الفلسطينية ـ جواد حسنى ـ أسرة مصر ـ أسرة عبد الحكم الجراحي)، والجماعات الأخرى التى تلتفح برداء الإسلام والتى كان يشاع أنها تتبع أجهزة الأمن وتتمتع بحمايتها ومنها جماعة «شباب الإسلام» !!

كان قائد جماعة «شباب الإسلام» طالباً بكلية الهندسة يدعى عدلى مطصفى، وكان يبدأ بإلقاء موعظة يدعو فيها إلى الاعتصام بحبل الله، ومهاجمة الشيوعية ودعوة أعضاء جماعته إلى تمزيق مجلاتهم والاعتداء على محرريها!!

كان أداء جماعة «شباب الإسلام» دائما ما يأتى متزامناً مع أداء جماعة أخرى اتسمت بالهزل وهى جماعة «قدامى الطلبة» وقد تكونت تلك الجماعة من الطلبة الرسابين الذين قضوا فى دراسة الهندسة ما بين ٦ إلى ١٠ سنوات أو يزيد؛ حيث كان يقف أحد هؤلاء قدامى الطلبة بعد تمزيق مجلات الحائط وضرب الطلاب، حيث كان أحد هؤلاء قدامى الطلبة يرتدى طربوشًا أحمر بزر أسود، ويقف على أحد الكراسى ويلقى قصائد شعر عامية هزلية يطلق عليها «الشعر الحلمنتيشي» تتندر من عدد السنوات العشر الذى قضاها بالكلية وما زال طالبًا فى السنة الثانية........ وقصائد زجل ساخرة من الدراسة وصعوبتها.. وكان الزجل مصاغاً بطريقة شيقة وجميلة، وكان الهدف بعد تمزيق المجلات وإيقاع الأذى بالطلبة الخصوم نقل الكتلة الضخمة من الطلبة إلى حالة من السخرية والضحك وإزالة التأثير النفسى للعنف وفض حلقات النقاش بشكل لطبيعى.

كان يتردد فى أوساط الطلبة أن جماعة «قدامى الطلبة» تتبع مباحث أمن الدولة فرع الجيزة، وأنه قد تم تخصيص مبالغ كبيرة لهم لشراء مستلزمات الهزل من طرابيش وعصى ومسابح وشراء نصوص الأغانى الهزلية والتدريب على الإلقاء الفكاهى لها . . وأن هذا النمط من الهزل هو إبداع مباحثى خالص، وكنت أميل إلى هذا الطرح وإن كنت لا أمتلك

عليه دليلاً.

وسبب هذا الميل من جانبى أن أجهزة القمع فى المؤسسات الأمنية قد استعملت علم النفس فى استمالات الجماهير المختلفة، كما أفادت من تلك العلوم فى عمليات غسيل الدماغ القذرة والتلاعب بالوعى، وقد أُرسلت البعثات إلى الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية لدراسة هذا الأسلوب سواء فى القمع أو التلاعب بالوعى .

ومثال ذلك تجربة المباحث العامة فى الدفع المنظور أو غير المنظور لأعضاء الحزب الشيوعى المصرى لحل الحزب من خلال تعريض أعضاء الحزب لحالة من الانسحاق الإنسانى فى معتقلات االناصرية، بإهانة الكرامة الإنسانية، سواء بعمليات التعذيب الممنهج أو عمليات غسيل المخ أو عمليات غسيل الدماغ القذرة باستخدام العقاقير أو استخدام الجراحات الإجرامية لإزالة الفصوص الأمامية من الدماغ أو من خلال الاستمالات المختلفة منها إذاعة أغانى الشوق والحنين بأصوات مفعمة بالشجن على المعتقلين فى محبسهم، مع إجبار أهالى المعتقلين على مخاطبتهم بخطاب مفعم بالوحشة والحنين واللوعة، ويقطر بمعانى الحزن لافتقادهم بالتغييب فى غياهب الاعتقال !!

***

كان من الواضح أن أجهزة الدولة قبل بدء الدراسة فى الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧٢ قد عقدت العزم على استثارة الطلبة وتصعيد وتيرة الصدام معهم سواء من خلال عمليات الاعتقال والتوسع فى اتخاذ إجراءات

مجالس التأديب وتمزيق مجلات الحائط، وبلغ الأمر ذروته عندما قام نائب رئيس الجامعة د. حسن حمدى (وكيل كلية الطب) بتمزيق مجلات الحائط، وعندما حاول أحد الطلبة الدفاع عن مجلته صفعه د. حسن حمدى على وجهه، وكانت ثورة الطلبة على هذا التصرف الأرعن من عضو هيئة تدريس افتقد الكياسة فى التعامل مع أحد الطلبة رغم صدور التعليمات إلى عمداء الكليات باحتواء تداعيات حماقة د. حسن حمدى وتبريرها فى إطار أبوى، وأنها لا تزيد عن واقعة أو سوء فهم بين أب وابنه !!

لكن حماقة د. حسن حمدى لم تقف عند هذا الحد بل فوجئ الطلبة من محررى المجلات الممزقة باستدعائهم للمثول أمام مجالس التأديب.. فى ذلك الوقت ثارت جموع غفيرة من الطلبة، وحاصرت مقر إدارة الجامعة حيث تعقد مجالس التأديب، وطالبت بتقديم د. حسن حمدى للتأديب لارتكابه ما يخالف الأعراف الجامعية بصفع طالب على وجهه !!

كان الطلبة يهتفون:

« عملوا ليكوا ولينا مجالس
هيه حضانة ولا مدارس»

.. ولم يحضر أعضاء اللجان المكونة لمجالس التأديب لاستشعارهم الحرج ولخوفهم من الجماهير الغفيرة من الطلبة التى تواجدت فى قاعة الاجتماعات الكبرى .

وطالت الهتافات الرئيس أنور السادات، وطعنت فى قدرته على إدارة شئون البلاد ؛ فجاء فى شعارات التظاهرات:

« قولوا للنايم فى عابدين

حكمك زفت وزى الطين»

ومع مساء ليلة ٢٧ ديسمبر ١٩٧٢ بدأت حملة من الاعتقالات فى أوساط الطلبة، ومع كل صباح يتنامى العلم بزيادة أعداد المعتقلين؛ فاشتعلت التظاهرات فى الجامعة، وقوبلت بقمع وحشى من قوات الشرطة؛ مما حدا بالطلبة بالاحتماء بالمدينة الجامعية؛ فقامت قوات الشرطة باقتحام المدينة الجامعية وممارسة أبشع أشكال القمع على الطلبة، وفى ٣ يناير ١٩٧٣ تضامن طلبة المدينة الجامعية مع زملائهم ورفضوا استلام الوجبات وتحطيم زجاجات اللبن، وانضم تلاميذ مدرسة السعيدية إلى الاحتجاجات .. ولجأت الحكومة إلى السيناريو المعتاد بتقديم موعد أجازة نصف العام وإغلاق الجامعة .

بيان الكتاب والصحفيين:

وفى ذلك الوقت وفى إطار إظهار التعاطف مع الطلبة أصدر مجموعة

من الكتاب والصحفيين بياناً فى يناير ١٩٧٣ جاء فيه:

« .. وتمضى الأيام وتصبح كلمة المعركة مجرد كلمة غامضة لا حدود لها ولا أبعاد لمعناها ولا تحليل لعناصرها، مجرد كلمة تلوكها الأفواه، مستهلكة لكثرة مضغها.

....

....

.. ولما كان الشباب هو الجزء الحساس فى الأمة، وهو الذى يعنيه المستقبل أكثر من غيره، فهو لا يرى أمامه إلا الغد الكئيب . فهو يجتهد فى دراسته ليحصل على شهادته النهائية؛ فإذا هى شهادة القذف به فى رمال الجبهة لينسى ما تعلمه ولا يجد عدوا يقاتله، وهذا أيضا بالنسبة إليه هو الضياع ... أما بقية المواطنين فهم يعيشون فى حياة صعبة سيئة الخدمات العامة، وكل نقص أو إهمال أو توقف أو عبث يختفى خلف صوت المعركة وفى انتظار المعركة وتمحكاً بالمعركة . وإذا بالأمر فى نظرهم ينقلب إلى مهزلة وإلى سخط وإلى قرف عام» .

.. وقد علمت ـ فيما بعد ـ الحقيقة أن «بيان الكتاب والمثقفين» والذى وقع عليه عدد من الكتاب والمثقفين لم يكن إلا بتكليف من د. محمد عبد القادر حاتم ضمن خطة الخداع الاستراتيجى التى أعدها لحرب أكتوبر ١٩٧٣، ولم يكن مضمونه بعيداً عن المعنى الذى كتبه محمد حسنين هيكل فى سلسلة مقالات بعنوان: «حالة اللا سلم .. واللا حرب»، .. كما

أن الطريقة التى نشر بها البيان فى صحف الخارج بما يوحى بأنه موجه ضد الدولة!!، وقد اعترف توفيق الحكيم بهذا صراحة فى خطاب أرسله إلى الرئيس أنور السادات .

وقد فسر لى هذا الأمر إصرار الحكومة على الاصطدام بالطلبة والتصعيد معهم .

الجماعة الإسلامية:

قامت «الجماعة الإسلامية» ككيان مصنوع بتوجيه ودعم حكومى وكانت تلك الجماعة الناشة بكوادرها المصنعة بلا تراث، ولا تقليد سياسى وتميزت بقصر النظر والجهل بأمور الدولة وشئون الحكم، وكان القائمون عليها يستحضرون حواديت تراثية بدائية عن الحكم والخلافة، ترجع إلى ما قبل نشأة الدولة الحديثة مثل فتاوى ابن تيمية فى قتال كل فئة تمتنع عن أداء شريعة ظاهرة متواترة من شرائع الإسلام كالصلاة أوالزكاة أو الحكم بما أنزل الله فى الدماء والأموال والأعراض أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو ما اعتمد عليه الأستاذ سيد قطب فيما أسس عليه الحكم بـ ««جاهلية المجتمع»»، واعتمد عليه محمد عبد السلام فرج مؤسس تنظيم الجهاد فى كتابه بعنوان:»الفريضة الغائبة، وجعل هذه الفتاوى الأساس النظرى لقيام تنظيمه وتسويغ أعماله كلها، والتى كان د. عمر عبد الرحمن

يبتكر له الحجة الشرعية كلما أعوزتهم الحجج للمضى فى غيِّهم .

وكانت مصادرهم الحديثة فى التثقيف كتب الأستاذة أبى الأعلى المودودى ومالك بن نبى وسيد قطب، ودون فهم حقيقى لما كتبه الأستاذ سيد قطب فى كتابيه بعنوان: «العدالة الاجتماعية» و «معالم فى الطريق»؛ فقد كان الأستاذ سيد قطب يعنى بـ «الحاكمية الإلهية»، الحاكمية التشريعية ممثلة فى التشريع الذى أنزله الله لعباده من فوق سبع سموات والله سبحانه وتعالى يأمر عباده وينهاهم ويحل لهم ويحرم عليهم، ففكرة الحاكمية ليست من اختراع الأستاذ سيد قطب لكنه أصل إسلامى مُجمع عليه ولا يعنى ثيوقراطية الدولة؛ فسند السلطة السياسية مرجعه إلى الأمة، فهى التى تختار حكامها، وهى التى تراقبهم وتحاسبهم وتعزلهم، والتفريق بين الأمرين هام والخلط بينهما هو التضليل بعينه !!

ومن مصادرهم الحديثة فى التثقيف بعض الكتيبات التى تحمل التوجه السلفى المحافظ الوارد من السعودية بغزارة حاملاً الفكر الوهابى السلفي؛ فقد تسابق السعوديون لاجتذاب شباب «الجماعة الإسلامية» الغر وتجنيدهم وتلقينهم الفكر الوهابى بكل تشوهاته حيث كانت تأتى كتب الفكر الوهابى من السعودية بالآلاف، وكانت كلها هدايا «تُهدى ولا تباع» وتوزع على الطلاب بالمجان دون فهم لما فيها من مشكلات فكرية ومنهجية، وكانت السعودية تخطط لنشر الفكر الوهابى من خلال تقديم رحلات العمرة المجانية التى كانت تمنحها السعودية لأعضاء «الجماعة الإسلامية» فى الأجازة الصيفية؛ حيث كان العلماء السعوديون يرحبون بهم، ويمارسون

معهم عمليات التضليل الفكرى، ويعدونهم ليكونوا امتدادا للفكر الوهابى فى مصر، وقد وصل العدد الإجمالى للطلبة الذين أفادوا من تلك المنح ١٥ ألف طالب وطالبة، وكانت تلك المنح أحد روافد نقل الفكر الوهابى المتشدد إلى مصر، وكان بعض الطلاب يتخلف عن القدوم مع الرحلة حتى موعد الحج ويعود من الرحلة حاجاً معتمراً وشيخاً سلفيا وهابياً !!

حقيقة الوهابية:

يزعم دعاة الوهابية أن الهدف من الدعوة هو إخلاص التوحيد ومحاربة الشرك، لكن الهدف الحقيقى هو إغواء البسطاء وعوام الناس واستغلال غوغائيتهم وعشوائية تدينهم ومعارفهم فى تمزيق وحدة المسلمين وإثارة الفتن ونعرات التناحر فيما بينهم خدمة للمحتل الأوربى، وقد اعترف بعض الأوربيين أن الوهابية انشئت بأمر مباشر من وزارة المستعمرات البريطانية، كما ورد فى كتاب سنت جون فيلبى بعنوان:»تاريخ نجد»، ومذكرات حاييم وايزمن أول رئيس للكيان الصهيونى، ومذكرات مستر همفر ضابط المخابرات البريطانية الذى شرح كيف تم تجنيد محمد بن عبد الوهاب، وكيفية تطويعه بمعرفة النساء العاملات بالمخابرات البريطانية للقيام بالمهام المحددة، وكتاب د.همايون همتى بعنوان:» الوهابية نقد وتحليل».

وكانت أقصر طرق الوهابيين لاستباحة دماء المسلمين هى التكفير،

فقد ورد فى رسالة محمد بن عبد الوهاب بعنوان:»كشف الشبهات» أنه أطلق لفظ الشرك والمشركين على عامة المسلمين عدا أتباعه فى نحو ٢٤ موضعاً .

وأطلق لفظ: الكفار، والمرتدين، وجاحدى التوحيد، وأعداء الله، ومدعى الإسلام، فى نحو ٢٠ موضعا ، وعلى هذا النحو سار أتباعه .

تأثير الوهــابية على ســلوك طلبة « الجماعة الإسلامية»:

وقد بدأ هؤلاء الطلبة فور عودتهم من «رحلة غسيل الدماغ» فى ممارسة شتى أشكال التشدد والتنطع الوهابى، الذى كان فى مجمله يدور حول مسائل تافهة لا تمس جوهر العقيدة، وتتركز معظمها حول المرأة؛ فبدأ هؤلاء فى الفصل بين الطلاب والطالبات فى مدرجات الدراسة ومحاولة فرض هذا الأمر بالقوة !!

وقام هؤلاء بمحاولة منع كافة الأنشطة الفنية فى الجامعة؛ فقد حدث أن أعلن اتحاد طلاب كلية الطب عن حفل غنائى فى سنة ١٩٧٣ وقبل الحفل بنصف ساعة احتل أعضاء «الجماعة الإسلامية» المدرج، وأخذوا يقرأون القرأن، ولم تستطع الفرقة الغنائية الدخول، وانتهى أمر الحفل، ولما فطن الطلاب من أعضاء اللجان الفنية إلى تلك الحيلة قاموا

فى مرة التالية بحراسة مكان إقامة الحفل، ولم يسمحوا بالدخول إلا لمن يحمل تذكرة، ولم يكن أمام «الوهابيون المصريون» سوى تحطيم الأبواب واقتحام الحفل بالقوة وتحطيم الآلات الموسيقية، والإيذاء البدنى للطبة أعضاء اللجان الفنية بالجنازير والعصى والمدى والسكاكين .

وقد أعادت تلك الحادثة إلى أذهان المصريين ذكرى مؤلمة حين أفسد رعاع الوهابية فرحة المصريين بوصول المحفل الشريف إلى الأراضى المقدسة فى ٢ يوليو ١٩٢٦؛ فاعتدوا على المحفل المصرى فى منى والحجاج المصريين .

كما قام رعاع الوهابية بإقامة حد شرب الخمر وتوقيع عقوبة الجلد على أحد الجنود المصريين المصاحبين للمحمل لتدخينه سيجارة !! بما ينطوى على فساد الاستدلال باعتبار السجائر من المسكرات !!

الأغرب من كل هذا وهو إثارة قضايا فقهية غريبة عن المجتمع المصرى مثل جواز نظر العم أو الخال إلى وجه الفتاة وكفيها !!

وبعد نجاح «الجماعة الإسلامية» فى الدفع بعناصرها إلى اتحاد طلاب الجامعة بمساعدة الدولة ممثلة فى مباحث أمن الدولة أصبح اتحاد الطلاب برئاسة الطالب عبد المنعم أبو الفتوح (كلية الطب) هو الجناح الاجتماعى لـ «الجماعة الإسلامية»، واستغلت الجماعة الميزانية الضخمة للاتحاد والتمويل السخى المجهول المصدر فى أعمال التجارة لحسابهم وتحقيق الثراء الشخصي؛ فقد تصور أعضاؤها من الوهابيين المصريين

أن النقاب والحجاب والجلباب، هى الأشكال التى يجيزها الإسلام، وبدأوا يروّجون لهذا التصور؛ لتوفير غطاء شرعى لتجارتهم؛ فكانوا يبعون ذلك الزى للطالبات بستة جنيهات !!

ظهور مصطلح «السلفية»:

ظهر مصطلح «السلفية» لأول مرة فى التاريخ بعد انتهاء «الحروب الإفرنج» فى القرن ١٢ فقد روعت الأمة الإسلامية بعجزها عن صد موجات الإفرنج، وما لحق بها من هزائم رغم تفوق المسلمين فى العتاد والعدد، وعلى الرغم من نجاح المسلمين فى طرد الصليبيين من المنطقة فى القرن ١٣ إلا أن ذلك تم تحت النظام مظلة النظام الإقطاعى العسكرى الذى أفرز نظماً سياسية سرعان ما تسلطت على الناس عندما انتهت من دورها التاريخى فى التصدى لحملات الإفرنج .

ووجد الناس أنفسهم فى مواجهة عسكرية وحضارية بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية الكاثوليكية؛ بما حدا بهم إلى الدعوة لتوحيد جهود الجبهة الإسلامية ضد حملات الإفرنج بإحياء المذهب السنى، وتأسيس المدارس لتدعيم هذا المذهب فى مواجهة الدعوة التشيعية بعد تأكدهم من فشل الخلافة الفاطمية فى فهم حقيقة نزوح الإفرنج فى شكل موجات شعوبية مسلحة، وإخفاق هذه الخلافة فى جهودها العسكرية ضد الإفرنج؛ فأسس صلاح الدين المدارس لتدعيم المذهب السنى، وكان يعتقد

أنه طريق التعبئة المعنوية اللازمة لضرب وجود الإفرنج .

وفى عصر سلاطين المماليك تزايد اعتماد السلاطين على أهل العمامة من علماء الدين والفقهاء، كما تزايد تدعيم الاتجاه المحافظ فى الفكر والتأليف باعتبارهم واجهة شرعية للحكم.. وقد جنحت آراؤهم إلى تملق الدولة وتبرير أفعالها .

وارتأى الناس فى الثقافة الرسمية حائلا دون تحقيق مصالحهم الشخصية، فبدأوا يتجهون إلى الثقافة الشعبية بكل ما تحمله من قيم التعويض النفسى عن واقعهم البائس، وتحمل لهم الأمل وتنتقم لهم من رموز الظلم، فظهرت الملاحم الشعبية التى تحكى عن البطل الشعبى الذى يظهر لينصف أهله وناسه، ويتجاوز الواقع المؤلم بحدوده المكانية وأطره الزمانية صوب اللا محدود زماناً ومكاناً .. بينما ارتأى المثقفون ضرورة الدفاع عن الذات الحضارية وجمع تراث الأمة وحفظه؛ فظهرت كتب المذيلات لشرح متون كتب التراث فى ذيل الصفحات؛ لذلك سميت بـ «كتب المذيلات»، وتم إنشاء معجمى اللغة «لسان العرب» لابن منظور و»القاموس المحيط» للفيروز آبادى .

وفى هذا العصر تجسد مفهوم «السلف الصالح» مفهوما اجتماعيا وثقافيا للخروج من المأزق الأخلاقى والقيمى الذى خلفته حروب طال مداها، وألقت بظلالها على المنطقة، وخاصة مع تزايد أعداد الأسرى من كلا الفريقين، بما تسبب فى رخص أسعار العبيد، فكان العبد أو الجارية تباع بقطف عنب أو ثمرة بطيخ؛ مما تسبب فى حالة من السيولة السكانية

خاصة أن ملوك الإفرنج قد رحلوا تاركين خلفهم الكثير من الجنود الذين لم تتسع السفن لحملهم إلى أوربا!!

لكن فى العصر الحديث تم استحضار مصطلح «السلف» و«السلفية» للتعبير عن فكر الوهابية، بما يمثله من القادم من الصحراء من ممارسات البدو، ويحمل سمات البادية، ولا يحمل فى ثناياه مسحة من حضارة بل يشد المنطقة إلى «عصور الظلام»، إضافة إلى ما يمثله من اللعب بـ «ورقة الدين» لممارسة لعبة «صناعة الملوك والحكام» التى صاغت ملامحها المخابرات البريطانية لنهب ثروات المنطقة .

«الجماعة الإسلامية»
فى قبضة الإخـــوان:

هكذا أصبحت «الجماعة الإسلامية» بما تتمع به من حرية الحركة بعقد المؤتمرات وإقامة المعسكرات والمخيمات أقرب إلى بناء ضخم فخم مشيد تسكنه مجموعة من الصبية الجهلاء المغامرون، الذين أتوا من أسفل السلم الاجتماعى، ويرغبون فى تطويع العقيدة للثراء والترقى الاجتماعى، ولم يضيع «الإخوان المسلمين» الخارجون من سجون الناصرية الوقت والجهد للدخول إلى ذلك البناء وممارسة طرحهم الجديد لخيار المشاركة فى النظام، والتغيير من داخله .

دخلت النسور العجوز لـ «الإخوان المسلمون» إلى الحلبة بفكرهم التقليدى وتجاربهم التنظيمية الحركية، وبأدنى الجهد قامت بتطويع الفراخ الصغيرة لـ «الجماعة الإسلامية» بزعم حماية شبابها من السلفية الوهابية الواردة من الخارج، والحقيقة أن «الإخوان المسلمين» لم يكن يعنيهم حماية أحد من فكر أحد، كان التقاء الإخوان بشباب «الجماعة الإسلامية» ينطوى على انتهازية الفريقين؛ فكان هدف «الإخوان المسلمين» دائما مصلحة التنظيم التى كانت ترى فى شباب «الجماعة الإسلامية» تجديدا لشباب التنظيم التى شاخت كوادرة فى سجون الناصرية، وكان هدف «الجماعة الإسلامية» هو الإفادة من الخبرة التنظيمية والحركية لـ «الإخوان المسلمين»، والانطلاق إلى آفاق الأممية وجعل جماعتهم دولية عبر الانخراط فى التنظيم الدولى لـ «الإخوان المسلمين» .. كانت النسور الجوارح من «الإخوان المسلمين» ترد من رافدين:

١ ـ رافد يرد من «النظام الخاص» بخبراته فى المراوغة والتنظيم والإرهاب .

٢ ـ رافد يرد من جموع الإخوان بسلوكها الفضاض والذى دأب على ممارسة سياسة الخفاء فى بعض المواقف والقضايا والتجلى فى بعض المواقف والقضايا.

كانت البداية إثارة حالة الإبهار لدى شباب «الجماعة الإسلامية» الغر من خلال تدبير لقاءات مع بعض العلماء المنتمين إلى «الإخوان

المسلمين» مثل الشيخ محمد الغزالى ود. يوسف القرضاوى والشيخ سيد سابق «مفتى الدم» والبهى الخولى .

وبأوامر من أمن الدولة أصبحت مكاتب المسئولين مفتوحة أمام الطالب عبد المنعم أبو الفتوح؛ فكان يستطيع مقابلة د. صوفى أبو طالب رئيس جامعة القاهرة أو د. حافظ غانم وزير التعليم وإملاء طلباته إذا حدثت أيه مشكلة مع «الجماعة الإسلامية» فى أى جامعة من الجامعات المصرية، والتى تم طرحها بديلاً عن «اللجنة الوطنية العليا للطلبة» التى كان يسيطر عليها اليسار!!

.. كانت د. زهيرة عابدين الأستاذ بكلية الطب، وزوجة د. عبد المنعم أبو الفضل الأستاذ بالكلية وأحد كوادر الإخوان المسلمين تقوم بعمليات التوجيه اليومى للطالبات، أما فيما يتعلق بتساؤلات الطالبات عن بعض الأمور، فقد تطلب الأمر تدبير لقاءات بين الطالبات وزينب الغزالى التى استطاعت بحكاياتها أن تخلب عقولهن .. لا أنكر أننى تأثرت بحكاياتها عندما استضافتها الجماعة الإسلامية بالكلية بمدرج ٧٨ بآداب القاهرة، لكن مع التوقف المتعقل مع تلك الحكايات تبلورت رؤية أخرى أزعم أنها الأقرب للحقيقة !!

فى مذكرات السيدة زينب الغزالى بعنوان: «أيام من حياتي»، تحاول الحاجة زينب ـ كما تحب أن تلقب نفسها بتلك الكنية ـ أو المجاهدة الكبيرة ـ كما يحب المتشيعون لها أن يلقبوها بتلك الكنية ـ إيهامنا من السطر الأول من المذكرات أنها لم تكن فى خصومة عادية مع شخص عادى، بل كانت فى خصومة مع رأس النظام؛ فتقول: «كان عبد الناصر

يكرهني»، واستغرقتنا فى حديث عن تلك الكراهية دون أن تقدم سبباً مقنعاً لها .. بداية من محاولته قتلها فى حادث سيارة، مروراً بحل المركز العام للسيدات المسلمات التى كانت ترأسه وإغلاق مجلة «السيدات المسلمات» التى كانت ترأس تحريرها، ومساومتها على الانضمام للاتحاد الاشتراكى مقابل أن تصبح وزيرة للشئون الاجتماعية، وإصرارها على رفض الذهاب لاستقبال الرئيس جمال عبد الناصر فى المطار، ودون أن تقدم لنا تبريراً منطقياً لما تضفيه على نفسها من أهمية تجعل من رئيس الدولة مصراً على أن تكون فى شرف استقباله، وانتهاء باعتقالها فى ٥ أغسطس ١٩٦٥فيما أسمته المؤامرة الكبرى، وكيف أمر عبد الناصر بتعذيبها فوق تعذيب الرجال بخطاب رسمى مذيلاً بتوقيعه وممهوراً بخاتم رئاسة الجمهورية حتى خرجت من السجن بعد وفاته فى ١٠ أغسطس ١٩٧١ .

تحاول الحاجة زينب أو المجاهدة الكبيرة إيهامنا بما لا يتفق مع طبائع الأمور ولا يستقيم معها؛ فتحاول أن تصدر لنا الوهم بأننا أمام امرأة قدت من صخر، فهى ضد الماء والنار وضد الكسر والجوع والعطش وضد الجلد والكلاب العقورة وذئاب السلطة المسعورة الجائعة لنهش لحمها ومصمصة عرضها حتى آخر قطرة من عفاف، وأنها تحملت من صنوف العذاب ما يعجز عن احتماله أولو العزم من الرجال من ذوى القوة والبأس، وبإحصاء بسيط لما روته الحاجة زينب أو المجاهدة الكبيرة عما لاقته من تعذيب بأمر الرئيس عبد الناصر نكتشف أنها:

جلدت ٥٠٠ جلدة ٦ مرات ، و٢٥٠ جلدة مرة واحدة ، وعلقت على أعمدة الحديد والخشب ١١ مرة ، وضربت بالسياط ٤٦ مرة على أوقات

متفرقة ، ووضعت فى غرف الكلاب المسعورة ٩ مرات لمدة ٣ ساعات فى كل مرة، وأن الكلاب ظلت تنهش جسدها ولم تترك أنيابها أى موضع ، فروة الرأس الكتف الظهر، ثم أخرجوها فإذا الثياب لم تتسخ وكأن ناباً واحداً لم تنهش فى جسدها، وتركت بلا طعام أو ماء ٦ أيام متتالية، وأدخلت زنازين الماء ٥ مرات وغرف النار ٣ مرات ، وأحضروا لها وحوشاً بشرية حاولوا أن يفعلوا بها الفحشاء ٣ مرات ، فى المرة الأولى أدخلوا عليها وحشاً فى صورة جندى وأغلقوا عليهما الزنزانة، فتحول الوحش إلى كائن وديع وقال لها: «لا تخافى يا خالة لن أؤذيك ولو قطعوني»، ولما فتحوا الزنزانة أعدموه فوراً لخيانته، وفى المرة الثانية أحضروا لها مجموعة من الذئاب وأغلقوا الزنزانة، وعندما اقترب منها ذئب انقضت عليه وغرزت أسنانها فى عنقه ، فإذا به يسقط تحت أقدامها خائراً ويخرج من فمه زبد أبيض مثل رغاوى الصابون، فحملوا الجثة وتركوها وهم مذعورون، وفى المرة الثالثة .. أعدوا حفنة من الجنود لافتراسها سقوهم الخمر والحشيش وما يشتهون من طعام، وحقنوهم فى المستشفى ليصبحوا مثل الكلاب المسعورة، ولكنهم فشلوا فى مهمتهم .

وعن البيعة وانضمامها لجماعة الإخوان المسلمين تقول الحاجة زينب أو المجاهدة الكبيرة إنها بايعت حسن البنا على سلم دار الشبان المسلمين بعد حل الجماعة فى ديسمبر ١٩٤٨، وكانا وحدهما وأنه قبل بيعتها، لكن على عشماوى يذكر فى مذكراته أنه عندما سألها فى وجود الأخ عبد الفتاح إسماعيل عن كيف بدأت علاقتها بالإخوان أجابته نصاً وبالحرف الواحد: (أنها فى إحدى الليالى وكانت ـ حالتها الروحانية غاية فى الصفاء ـ صلت العشاء، ثم نامت وفى نومها رأت الشيخ حسن البنا مؤسس الجماعة، وقال لها إنه آن الأوان لتصحح مسار عملها الإسلامى، وتعمل من خلال جماعة

«الإخوان المسلمين»، وقدم لها يده، ووضع كفها بين كفيه، ثم تلا البيعة وهى تردد خلفه حتى انتهت، ومن يومها وهى تعمل مع الإخوان بتلك البيعة)، بما يضع الكاتب فى مأزق؛ فلا أحد حضر بيعة الحاجة زينب للبنا على سلم جمعية «الشبان المسلمين»، ومات الشاهد الوحيد الذى يستند إليه على عشماوى فى روايته.

مذكرات الحاجة زينب أو المجاهدة الكبيرة فى مجملها تمثل حالة من الهراء الذى يضعها فى مرتبة أقل من مستوى التقييم من منطلق التفكير العلمى الذى يحترم العقل!!، .. لكن «المسكوت عنه» فى تلك المذكرات كثير، خاصة فيما يتعلق بدور الحاجة زينب فى نقل أموال تمويل الإرهاب، وتعليمات زعماء الإرهاب إلى أدوات تنفيذ الجرائم من الشباب المغرر بهم .

وبعد هذه اللقاءات الفكرية التى كانت تستهدف التلاعب بالوعى عبر الاستمالات العاطفية بدأت اللقاءات الحركية؛ فكان أول لقاء بين «الجماعة الإسلامية» ويمثلها الطالب عبد المنعم أبو الفتوح وبين «الإخوان المسلمين»، ويمثلها كمال السنانيرى، وكان كمال السنانيرى قد حدد مكان اللقاء فى محل أحذية فى شارع قصر العينى يملكه أحد الإخوان، وللتمويه كان يؤتى بالأحذية للرجلين لقياسها، وأثناء ذلك دار الحديث والاتفاق والرجلان يقيسان الأحذية !!.

وقد أعاد أسلوب هذا اللقاء إلى ذهنى وقائع اللقاء الذى قام حسن أفندى البنا بتدبيره بين أنور السادات ضابط الحرس الحديدى آنذاك والفريق عزيز المصرى عميل المخابرات الألمانية فى عيادة طبيب الأسنان

إبراهيم حسن بحى السيدة زينب .

ثم كان اللقاء الثانى بين الطالب عبد المنعم أبو الفتوح ممثل»الجماعة الإسلامية» وعباس السيسى ممثل «الإخوان المسلمين»، فى مدينة رشيد بالقرب من الأسكندرية بعد مسلسل من حركات التمويه أقرب إلى تلك التى يتبعها رجال العصابات!!

ثم كان لقاء البيعة بين الطالب عبد المنعم أبو الفتوح ممثل «الجماعة الإسلامية» وعمر التلمسانى المرشد الثالث لـ «الإخوان المسلمين»، والتى تلتها بيعة معظم قادة «الجماعة الإسلامية» فى جامعة القاهرة وجامعات مصر .

وبدأت الجماعة الإسلامية التوسع فى مطبوعاتها التى تحمل شعارى «الجماعة الإسلامية» و«لإخوان المسلمين»، وتضمنت الدعوة لإقامة صلاة العيدين فى الساحات .. كان الشيخ محمد الغزالى يؤم المصلين فى صلاة عيد الفطر بساحة جامع عمرو بن العاص، وكان الشيخ يوسف القرضاوى يؤم المصلين فى صلاة عيد الأضحى فى ميدان عابدين .

وبدأت إمارات الشقاق بين أعضاء «الجماعة الإسلامية»؛ فقد تم انضمام قيادات «الجماعة الإسلامية» إلى تنظيم «الإخوان المسلمين» دون علم قيادات الصف الثانى من الجماعة أو أخذ رأيهم مما تسبب فى تصدع وحدة الجماعة خاصة الجناح المتبع لـ «السلفية المحافظة»





قدم الطالب عبد المنعم أبو الفتوح «الجماعة الإسلامية» لقمة سائغة في فم الأخوان المسلمين عندما بايع المرشد الثالث للإخوان عمر التلمساني دون علم قيادات الصف الثاني من الجماعة، وقبض الثمن، ولما علم السادات بالخديعة فقد صوابه وكان الصدام المحموم، .. وظل أبو الفتوح يمارس دوره في الخداع زاعماً أن اختلف مع الإخوان المسلمين واستقال من التنظيم، .. ولم يكن ترشح أبو الفتوح في انتخابات الرئاسة ٢٠١٢ سوى مناورة تنظيمية لتفتيت الكتلة التصويتية المناوئة للإخوان .

الواردة من السعودية، والتى يأكل متبعوها على فتات موائد الوهابية والتى راح متبعوها يتهمون المنضمين إلى تنظيم «الإخوان المسلمين» بأنهم أصحاب بدع وتحلل فى الدين وفساد فى العقيدة، ومتبعى «السلفية المجاهدة» التى تأسست فى أسيوط والمنيا، وانتهجت تلك الجماعة أسلوب العنف وعلى رأسهم كرم زهدى وأسامة حافظ وناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد وعصام دربالة، والتى راح متبعوها يتهمون المنضمين إلى تنظيم «الإخوان المسلمين» بأنهم متخاذلون آثروا مهادنة الحكومة الكافرة والشرب من مرق السلطان !!

ولم تلتق تلك الفرق المتناحرة والمتنابذة إلا فى السجن بعد اغتيال الرئيس أنور السادات .

دفع الرئيس أنور السادات ثمن الرقص فوق رؤوس الأفاعى غاليا .. ولم ينجُ محمد عثمان إسماعيل من العنف الذى صنعته يداه وتشربته نفسه؛ فقد انتهى به الحال مسجوناً فى قضية جنائية .

مزاعم «نبذ العنف»:

تصريحات مرشدى «الإخوان المسلمين» عن نبذ العنف مجرد

تصريحات للاستهلاك فقط؛ فمنهج الجماعة قائم على العنف وتصفية الخصوم، منذ أن أنشأ حسن البنا النظام الخاص لم يتورع عن ممارسة القتل لأتفه الأسباب، وعندما وجد نفسه محاصراً بدائرة الثأر حاول إيقاف دوران دوامة الدم وجد نفسه فى قلبها لا يستطيع منها فكاكاً، ووجد نفسه رهينة فى قبضة قائد النظام الخاص عبد الرحمن السندي؛ لذا كانت مقولته الشهيرة لعبد العزيز حجازى مستشار النظام الخاص:

« لهذا خلق الله الندم يا عبد العزيز.» .

وبعد قتل حسن البنا حاول حسن الهضيبى المرشد الثانى تبنى مزاعم نبذ العنف .. كان عبد الرحمن السندى رئيس النظام يؤكد أن لدعوة الإخوان مرشدين: مرشد ظاهر هو الهضيبى، ومرشد خفى هو السندى، وهذا الموقف منه قد يفسر عداء بعض أعضاء النظام الخاص للهضيبى، لدرجة أنهم أعلنوا العصيان لأوامره وهددوه، وحرضوا بعض الإخوان على الاعتصام بمنزله ومحاوله إجباره على الاستقالة !!؛ بما تسبب فى قتل أفراد النظام الخاص لبعض زملائهم وأهمها قضية قتل سيد فايز .

ابتدع «الإخوان المسلمون» ما أطلقوا عليه «المراجعات»، وهى نوع من الزعم بإعادة النظر؛ لتصحيح المفاهيم الخاطئة التى قادتهم إلى ممارسة العنف، فادعى الهضيبى تأليفه لكتاب بعنوان: «دعاة لا قضاة»، والحقيقة أن الهضيبى لم يكتب حرفا فى هذا الكتاب؛ فعندما قررت مباحث أمن الدولة الحصول على وثيقة فكرية تعبر عن التوبة ونبذ العنف، ولم تكن شيخوخة الهضيبى أو حالته الصحية والفكرية تسمح بذلك؛ فقام بعض

الشباب من عملاء جهاز مباحث أمن الدولة وعلى رأسهم عبد الله شحاتة المعيد بكلية دار العلوم بإعداد كتاب «دعاة لا قضاة»، وتم عرض مسودة الكتاب على الهضيبى الذى وافق عليه تمهيداً لخروجه من السجن، وتم طبع الكتاب منسوبا إليه !! ولم تكن مبادرة نبذ العنف ونشر كتاب «دعاة لا قضاة» إلا مجرد رقص فى إطار الدائرة التى رسمتها مباحث أمن الدولة دون سماح بالخروج على النص؛ ليخرج مشروع المصالحة مع «الإخوان المسلمين»، وإخراجهم من سجون الناصرية بصيغة يقبلها الرأى العام ليصبحوا حلفاء لنظام السادات.

وقد انتهجت «الجماعة الإسلامية» و «تنظيم الجهاد» بعد تورطهما فى حوادث رفع السلاح على الدولة نفس منهج أساتذتهم فى الإجرام «الإخوان المسلمين» وقدما مبادرتهما، حيث ألقى أحد مجرمى «الجماعة الإسلامية» بياناً أثناء مثوله أمام المحكمة العسكرية فى ٥ /٧ /١٩٩٧ موقعاً من ستة من قادة الجماعة، تضمن إيقاف جميع العمليات الإرهابية فى الداخل والخارج، ووقف جميع البيانات المحرضة عليها من طرف واحد دون قيد أو شرط، ومع ذلك ارتكبت الجماعة جريمة الأقصر بكل تداعياتها الإجرامية المؤلمة فى ١١ نوفمبر ١٩٩٧!!

كانت تلك المبادرة إعادة لطرح مبادرة الشيخ محمد متولى الشعراوى بالاتفاق مع اللواء محمد عبد الحليم موسى وزير الداخلية، والذى تمت إقالته بسببها !!

وبدأت لعبة «المراجعات»، وتمسكت مباحث أمن الدولة بثوابتها

الموروثة فى ضرورة الحصول على وثيقة فكرية بإدنة العنف فصدرت المراجعات فى أربعة كتب أقر فيها المجرمون بالتوبة واعترفوا بخطئهم فى فهم:

- فقه التكفير

- فقه الجهاد

- فقه الخروج على الحكام

- فقه تغيير المنكر بالقوة

وانتهت «اللعبة» بإسقاط الأحكام القضائية الصادرة بحقهم، وخروجهم من السجون !!

وضاعت الحركة الطلابية بين شطحات «اليسار المغامر»، وتنطعات «اليمين الراديكالي» !!

محاولات الاستقطاب:

كنت أتوقف أمام مجلات الحائط التى تعبر عن شتى الاتجاهات، لكن

لم أستشعر ميلا لاتجاه بعينة؛ فقد كانت كلها تعبر عن أصوات من خارج الوسط الطلابى !!

كان كل اتجاه يحاول أن يجتذب العناصر الواعدة إلى جانبه بأساليب رأيتها مقززة، ويضع فى مصيدته العديد من الإغراءات التى يعف عنها كل ذى كرامة من مساعدات مالية وملابس غير معلومة المصدر ورحلات!!

تجربتى مع جريدة «الشباب والمعركة»:

كانت محاولتى الأولى للعمل بالصحافة هى كتابة مقال فى جريدة «الشباب والمعركة»، التى كانت تصدر عن الاتحاد الاشتراكى بجامعة القاهرة .. كان المقال بعنوان:«تحديث البحث العلمي»، كان المقال يتناول المتاهة الضبابية، التى ألقى فيها جيلنا من طلبة قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، حيث كانت الكتب التى يستشهد بها أساتذتنا عبارة عن مراجع قديمة لبعض الهواة من أمثال سليمان البستانى ودرينى خشبة أو لجيل من الأساتذة لم تكن قدمه قد ترسخت فى مجال البحث الأكاديمى من أمثال د. محمد صقر خفاجة وعبد الواحد وافى، وطالبت بضرورة تحديث مكتبة الآداب بما يضخ فى أروقتها الجديد الذى لا أستطيع أن أحدد ماهيته لكونى لم تتح لى الفرصة لأعرفه ولكنى أفتقده!!

ونشر المقال كاملاً مع صورة شخصية لى، وثار بعض الأساتذة ووبخنى بعضهم، ولكنى لم أهتم ؛ فلا وقت للمجاملة أو صناعة الأوثان .

وذهبت لتسليم المقال الثاني؛ فامتنع المسئول عن استلامه بحجة أننى لست مسجلاً عضواً فى التنظيم !!

توفيق عبد الحي

وجريدة «صوت الطلاب»:

حكاية توفيق عبد الحى الذى صار يلقب ـ فيما بعد ـ باسم «المليونير الهارب» تعيد إلى الأذهان حكاية محجوب عبد الدايم بطل رواية نجيب محفوظ بعنوان: «القاهرة الجديدة»، والتى عالجتها السينما فى فيلم بعنوان: «القاهرة ٣٠»، محجوب عبد الدايم صاحب أشهر «طظ» فى تاريخ السينما المصرية، وصاحب ثقافة العدمية التى داسته حوافرها وحولته إلى مجرد مسخ بشري متزوج لحساب الغير، وكانت فلسفته فى الحياة تلخصها نفس الكلمات التى أجراها كاتب الراوية على لسان بطلها محجوب عبد الدايم:

«كل شيء وتمنه.. كل شيء بالفلوس.. الحب والمركز والشرف.. ادينى فلوس اشتريلك الدنيا بحالها.. ادفع يدفع لك العالم .. نحن نعيش

واقع وسخ، ولن يكسب فيه إلا الأوسخ؛ لذا؛ سأكون أى شىء، ولكن لن أكون أحمق أبداً، أحمق من يرفض وظيفة غضباً لما يسمونه الكرامة، أحمق من يقتل نفسه فى سبيل ما يسمونه وطناً.» .

كذلك كان توفيق عبد الحى طالب قسم التاريخ الذى تخرج فى سنة ١٩٧٢ .. كان توفيق عبد الحى أحد عملاء مباحث أمن الدولة فى أوساط الطلاب، وكان يسمى الدور القذر الذى يقوم به «شعبة قياس الرأي»، وبعد تخرجه منحته المباحث ترخيص جريدة «صوت الطلاب» ليصدرها من خارج الجامعة فى سابقة هى الأولى من نوعها بعد مصادرة انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لأغلب تراخيص الصحف فى ١٩٥٤ بعد إثارة قضية المصاريف السرية !!

وكان زواج توفيق عبد الحى من الفاتنة «فاتن الأشوح» نقطة البداية فى انطلاقته ليودع دنيا الفقر، ويصبح فتى التنمية الشعبية المدلل ووزيرها «زئر النساء»؛ وكان هذا الزواج هو بداية النهاية بعد تولى حسنى مبارك رئاسة الجمهورية، وهرب توفيق عبد الحى إلى خارج البلاد حتى يومنا هذا !!

ولأجل عيون فاتن الأشوح منح ع . أ . ع الكثير من الامتيازات لتوفيق عبد الحى حتى عندما تطلب الأمر موافقة رئيس الجمهورية لمنحه ١٠ ملايين جنيه قرضاً، افتقد الضمانات الكافية من بنك قناة السويس، توسط ع . أ . ع لدى الرئيس أنور السادات لإتمام ذلك؛ فأمر الرئيس أنور

السادات نائبه حسنى مبارك بالتوقيع بالموافقة!!

حاول النائب حسنى مبارك التودد إلى فاتن الأشوح التى صدته وأخبرت ع . أ . ع بالحكاية؛ فوبخ حسنى مبارك الذى أسرها فى نفسه، وعندما واتته الفرصة بعد أن أصبح رئيساً لمصر حاول تصفية الحساب مع توفيق عبد الحى وزوجته لكنهما كانا أسرع من انتقامه بهروبهما إلى خارج البلاد !!

جانب كبير من تلك الحكاية تضمنتها تحقيقات المستشار حسنى عبد الحميد مساعد المدعى العام الاشتراكى للكسب غير المشروع .

لقاء مع القتلة:

فى ظهيرة يوم شتوى جاء إلى غرفة مسكنى بالمدينة الجامعية أحد أقربائى مصطحباً شاباً هادئاً قدمه لى باسم الدكتور يسرى على اعتبار ما سيكون!! .. الدكتور يسرى طالب بالسنة الثانية بكلية الطب؛ وأضاف أننا أقرباء فوالدة الدكتور يسرى بنت عم والدتى، وعلمت أن خال الدكتور يسرى هو الأستاذ الدكتور رشدى عبد الله الأستاذ بكلية الطب البيطرى.

ولم تمض بضعة أيام حتى زارنى الدكتور يسرى بمفرده، وعلل سبب الزيارة أنه كان فى زيارة لبعض أصدقائه بالمدينة الجامعية، وقرر أن يمر علىّ للتحية، وأبدى رغبته فى إجراء التعارف بينى وبين أصدقائه

ولم أمانع !!

كان من بين أصدقاء الدكتور يسرى شاب مريب يجلس فى ركن من الغرفة يطالع كتاب «الأمير» لميكافيللى فى طبعته الإنجليزية، وانقبضت نفسى من هيئته، فقد ذكرتنى بتشارلز ميللر مانسون زعيم الهيبز، وقد علمت ـ فيما بعد ـ أنه شكرى مصطفى زعيم «التكفير والهجرة» بعد أن نشرت الصحف صورته.

حاول الدكتور يسرى طالب الطب تخفيف حدة انطباعى عن شكرى مصطفى، ولم تفلح محاولاته لكون تصرفات المجموعة ونظراتها مريبة!!

.. وانقطعت علاقتى بالدكتور يسرى طالب الطب وأصدقائه المريبين.

حكاية تنظيم الفنية العسكرية:

بعد وقت قصير وأثناء الاستعداد لامتحانات السنة الثانية حملت لى الصحف أخبار الاعتداء على الكلية الفنية العسكرية من قبل تنظيم أُطلق عليه اسم: «تنظيم الفنية العسكرية» وأن قائد التنظيم يدعى صالح سرية، وهو موظف بالجامعة العربية من أصل فلسطينى ويحمل الجنسية

العراقية.

وعلمت أن اثنين من معارفى متورطان فى ذلك التنظيم أحدهما الدكتور يسرى طالب الطب (المتهم ٦٦)، والثانى المهندس فتحى عبد السلام مبارك (المتهم ٩١).

كانت خطة التنظيم فى غاية السذاجة، وتدعو إلى الدهشة والعجب، فكانت الخطة قائمة على فرضيات مضحكة، قوامها أن يقوم أفراد التنظيم بالتجمع فى الحديقة الوسطى بميدان العباسية فى الساعة ١١ صباحاً تمهيداً لمهاجمة الكلية الفنية العسكرية فى الساعة ٢ بعد الظهر، والاستيلاء على السلاح منها، والسير إلى مبنى اللجنة المركزية للقبض على الرئيس السادات الذى كان يترأس اجتماعاً بها والاستيلاء على مبنى الإذاعة وإذاعة بيان الثورة !!

كانت الخطة تفترض أن القاهرة قد خلت من سكانها، وأن التنظيم وحده يسبح فى فراغها !!، وكان بيان الثورة الذى أعده صالح سرية لا يزيد عن كونه موضوع إنشاء لتلميذ محدود القدرات فى الصف الرابع من المرحلة الابتدائية !!

«رزة» فى إكسفورد:

مع نهاية عام ١٩٧٢ اختفت «اللجنة الوطنية العليا للطلاب»...

واختفت اللجان الوطنية التى انتخبت من مؤتمرات جماهيرية... تم حلها جميعاً بدون إعلان !!.. ولم يقدم قادة الحركة الطلابية تفسيراً لتلك المسألة !!، واختفى رئيس اللجنة الطالب أحمد عبد الله رزة؛ ليظهر مرة أخرى سنة ١٩٧٤ فى إكسفورد بعد تخرجه فى جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣ محاطاً برعاية بروفيسر روجر أوين أحد المؤرخين البريطانيين المهتمين بالشأن المصرى، الذى توسط له للحصول على منحة من كمبريدج؛ ليتم منحه درجة الدكتوراة عن أطروحة هزيلة اعتمدت على السرد، وغاب عنها التحليل بعنوان:»الطلاب والسياسة فى مصر» .. هكذا تم إعداد أحمد عبد الله رزة لدوره المنتظر، وبدأ تسهيل تنقلاته بين إنجلترا وأمريكا، ووضعه فى مصاف المفكرين بتسهيل حضوره للمؤتمرات التى نظمتها جامعة هارفارد والجامعة الأمريكية بالقاهرة !!.

ويعترف بروفيسور روجر أوين صراحة:

«أنه قد تم استخدام أحمد عبد الله رزة فى الاتصال بطلبة مصريين من جامعات أخرى بالقاهرة لتشجيعهم على استخدام مناهج فى البحث لإعادة هيكلة أبحاثهم المتنوعة للمجتمع المصرى، ولتخطيط السبل التى تستطيع من خلالها الجامعات الأمريكية المساعدة فى تعظيم مكتباتها العجاف ومراجعها ومصادرها بلغات أجنبية متعددة .».

ومعنى اعتراف بروفيسر روجر أوين هذا أن أحمد عبد الله رزة كان إحدى أدوات جمع المعلومات وتقديمها لجهات أجنبية وتجنيد العناصر الناقلة للعدوى التى استخدمها المستشرقون الجدد فى المراكز البحثية

Think Tanks التى قامت بدعم السياسة الخارجية الأمريكية، وإمداد البنتاجون بالمعلومات التى ساعدت فى مشاريع العدوان الأمريكى بالمنطقة وما آلت إليه الأحوال فيها !!

.. وبدأت خطواتى الأولى

فى عـــالم الصحـــافة:

بلغت السنة الثالثة بآداب القاهرة .. وأصبحت ملامح المستقبل أكثر وضوحاً بعد أن أُتيحت لى فرصة التعرف على ما آل إليه حال بعض زملائى الذين سبقونى بالتخرج؛ فقد تم تعيينهم مدرسين بوزارة التربية والتعليم أو أمناء مكتبات، وأدركت عمق المأزق، وأننى سأصبح مجرد عملة بائرة فى سوق العمل، وكان علىّ أن أغير توجهى فى هذا المجال، فى تلك الفترة تعرفت على الأستاذ الأديب الصحفى محمد الشريف السكرتير التنفيذى لمجلة القصة، والأستاذ الكاتب الصحفى فتحى سلامة سكرتير المجلة، وعرضت على الأستاذ محمد الشريف أن أتدرب على العمل الصحفى فى المجلة .. وبعد تفكير وافق، وبدأت أتردد على مقر المجلة بشارع قصر العينى .

فى مجلة القصة عرفت الأستاذ يوسف السباعى رئيس نادى القصة ورئيس تحرير مجلة القصة ورئيس منظمة التضامن الأفرو ـ آسيوية ورئيس مجلس إدارة دار الهلال ورئيس تحرير مجلة المصور .

لم يكن العمل سهلاً فى مجلة القصة، خاصة مع سفالات عمال الطباعة الذين يصفون حروف الرصاص المقلوبة بتقنية الحرف الساخن «لينوتيب Linotype»، وهى وكانت تلك الوسيلة من أحسن الطرق المعروفة للمنضدة السطرية التى تستطيع تكوين سطر كامل من الطباعة فى المرة الواحدة بطريقة السبك الحرارى للحروف على قطع معدنية، تعلو أطرافها الحروف بارزة ويتم سبكها بآلات تقوم بكبس شكل الحروف من خليط منصهر من الرصاص والقصدير والأنتيمون؛ فلم تكن اخترعت بعد تكنولوجيا الحرف البارد عبر الجمع التصويرى لإنتاج الحرف على أفلام خفيفة شفافة أو على ورق التصوير الحساس (بروميد) أو الجمع الإلكترونى الذى يتم فيه إرسال الحروف فى شكل شفرات رقمية إلى الطابعة.. كان رئيس قسم الجمع الأسطى عطوة أو الريس عطوة ـ كما ينادونه ـ وهو رجل سكير مدمن للأفيون، ويعد مثالاً فى سوء الخلق، وكنت كلما ذهبت إلى قسم الجمع لإحضار البروفات سخر منى قائلاً:

ـ روح ذاكر يا شاطر ..

ويتمادى فى سخفه يجامله بالضحكات حفنة من الرعاع الذين يعملون تحت رئاسته .

ولما فشلت فى احتواء سخافاته؛ شكوت لرؤسائى المباشرين، ولما ضاقوا بشكواى وفشلهم فى إثناء الأسطى عطوة عن سفالاته قالوا:

ـ اشكوه إلى الأستاذ يوسف السباعى .

ودخلت بشكواى إلى مكتب الأستاذ يوسف الذى نظر إلىّ من أعلى إلى أسفل، وأطال النظر فى عينىّ حتى داخلنى إحساس بالخوف، وقال فى هدوء:

ـ أنت طالب ؟

وأجبت بالإيجاب

قال:

ـ عندك كام سنة ؟

أجبت: عشرون .

قال:

ـ نصيحة منى لشاب فى سنك .. لا تشكو من أحد بل اجعلهم يشتكون منك .. ساعتها ستعرف كيف انتصر لك، وأشار لى بالانصراف !!

قال لى رؤسائى المباشرين إن الأستاذ يوسف السباعى وضعنى فى اختبار يتوقف على نتيجته استمرار عملى بالمجلة .

وفى اليوم التالى ذهبت لإحضار البروفات وقابلنى الأسطى عطوة بسفالته المعتادة ، لكنه فوجئ هذه المرة بحالة من التحدي؛ فقلت له:

ـ مش تحترم نفسك يا راجل يا مهزأ.

وقبل أن ينطق بحرف عاجلته وقلبت عليه الشاسيه الحديدى لسطور الرصاص التى أصابته فى وجهه وصدره، ومضيت مسرعاً .

وجاء الأسطى عطوة ليشكونى للأستاذ يوسف السباعى الذى وبخه، وعنفه، وأغلظ له فى القول، وأنذره بالفصل إن عاود التعرض لى مرة ثانية، وقال له إن أصغر أستاذ يعمل تحت رئاسته يمثله شخصياً !!

طلبنى الأستاذ يوسف، فذهبت إليه مرتبكاً خشية أن أكون قد أسأت التصرف، لكننى فوجئت به مبتسماً، وأعطانى استمارة «أمر صرف» بمكافأة قيمتها ٥ جنيهات (كانت مكافأتى عن العدد الواحد من المجلة لا تزيد عن ٤ جنيهات) وقال لى:

«إن الرجل هو الذى يحدد سلوك خصومه، ويضع ملامح خططهم؛ لذا يجب على الرجال ألا يجهروا بالشكوى بل يعملوا فى صمت وصبر عزم؛ ليجعلوا خصومهم يهابونهم ويشتكون منهم لطوب الأرض».

.. هكذا علمنى الفارس يوسف السباعى ضابط سلاح الفرسان السابق

أهم درس فى حياتى، وفهمت أنه فى البداية أراد بعقلية الفارس المحارب أن يؤسس لإرادة المقاومة بداخلى؛ ليبنى عليها دعمه ومساندته لي؛ لأنه لا جدوى من البناء على الفراغ .

كنت أتعجب وأنا أرى الفارس يوسف السباعى يجلس فى المقعد الأمامى للسيارة بجوار سائقه الأسطى عبد الكريم بعكس ما يفعله الكبراء والوزراء من الجلوس فى المقعد الخلفى للسيارة، وكنت أعتبر هذا السلوك ينطوى على ملمح من تواضع، لكنى اكتشفت أنه سلوك نابع من روح وعقيدة القائد العسكرى الذى يجب أن يكون دائما فى الصف الأول، وفى المقعد الأمامى فقد عاش الفارس يوسف السباعى حياة الجندية حتى بلغ رتبة العميد .

أصيب الأسطى عطوة بحالة من الرعب، وسعى للتصالح معى، ووسّط فى هذا الأمر رؤسائى المباشرين، وبعد رفض مصطنع من جانبى وافقت وتم الصلح .. وأصبح الأسطى عطوة يردد بمناسبة وبغير مناسبة أنه: (لا محبة إلا بعد عداوة)، وإن كنت ـ حتى هذه اللحظة ـ لا أعرف دوافع العداوة، ولا دواعى المحبة، ولكننى قبلت ذلك التبرير المتخلف فى إطار كياسة التعامل التى تفرض قبول بعض الأكاذيب فى مجال النفاق الاجتماعى؛ لتمضى بنا قافلة الحياة بسلام .

أتاحت لى تلك المصالحة الحصول على العديد من المعارف فى

مجال الطباعة فقد عرفت البنط (حجم الحرف)، والفنط (شكل الحرف) والكور (مقاس السطر)، وعرفت الكشايد (المسافة بين الحروف)، والرقائق (المسافة بين السطور)، وعرفت أدوات العمل مثل السهلة (قطعة من الخشب الطرى لتسوية سطور الرصاص) والدقماق (مطرقة صغيرة تستخدم من فوق السهلة لتسوية سطور الرصاص) والشاسيه (طوق من الحديد لطبع بروفات الصفحات)، واكتسبت حالة من النضج الاجتماعى بمشاركة العمال طعامهم من الفول وقطع البصل، وشرب الشاى فى أكواب متسخة بالرصاص، وشرب اللبن الملوث الذى كانت تقدمه أقسام الأمن الصناعى لعمال الطباعة كل صباح؛ لتخفيف نسبة الرصاص فى الدم .

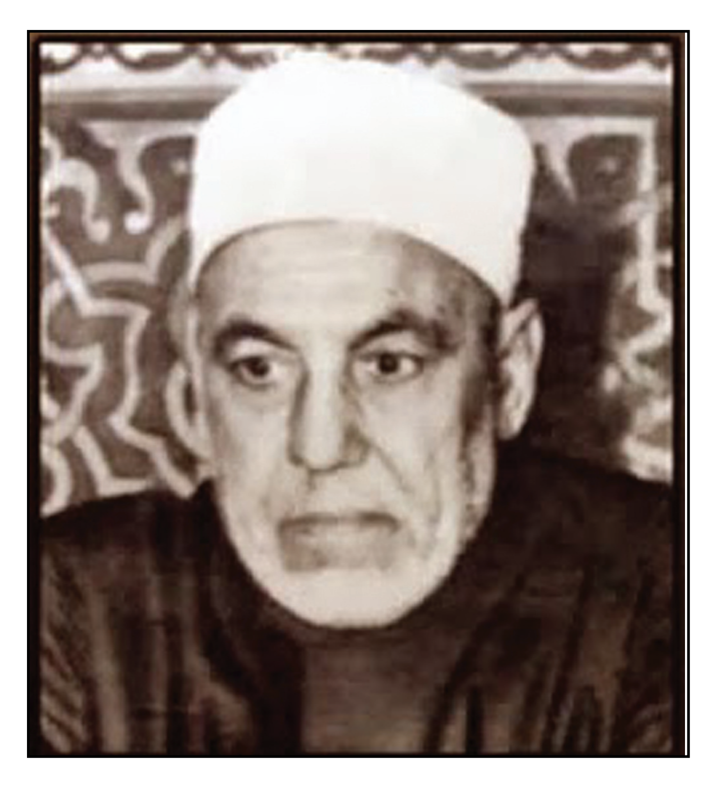
وانتهت تلك التجربة الثرية بتخرجى فى الجامعة، ودخولى إلى القوات المسلحة لقضاء فترة التجنيد الإجبارى فى يوم السبت ٢ أبريل ١٩٧٧ .

كانت مصر تخوض حالة من المخاض العسر بعد حرب أكتوبر؛ فقد أذعن السادات للمطلب الإسرائيلى بوضع مدن القناة رهينة فى قبضة المدفعية والطيران الإسرائيلى؛ وفتح البلد للرأسمالية العالمية المتوحشة التى جاءت ومعها «عصابات المافيا» الدولية؛ فكانت «انتفاضة الخبز» فى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧.

مقتل الشيخ الذهبى:

وأثناء وجودى فى مركز تدريب المشاة .. نقلت الصحف فى يوم الأحد ٣ يوليو ١٩٧٧ خبر مقتل الدكتور محمد حسين الذهبى وزيراً للأوقاف فى وزارة ممدوح سالم فى الفترة من (أبريل ١٩٧٥– نوفمبر ١٩٧٦)، ونشرت الصحف صورة القاتل وكان شكرى مصطفى، وتعرفت عليه فقد كان ذلك الرجل الذى حاول الدكتور يسرى طالب كلية الطب إجراء التعارف بيننا فى لقاء بالمدينة الجامعية سنة ١٩٧٣ .

وعلمت من المنشور بالصحف أن اسمه هو شكرى أحمد مصطفى ويتزعم تنظيم أطلق عليه أمن الدولة: « التكفير والهجرة» وهو خريج كلية الزراعة، وسجين سابق فى قضية الإخوان المسلمين ١٩٦٥، وقد انتهج نهجاً يقضى بتكفير المُجتمع المسلم واعتزاله مؤقتاً، والخروج إلى صحراء ومغارات جبال صعيد مصر، حتى يتسنى لهم العودة مرة أخرى للقضاء على المجتمع، وإنشاء دولة الخلافة وإمارة آخر الزمان، وقد سلك شكرى مصطفى فى تحقيق ذلك سبلاً منها جمع أموال وحلى وذهب أفراد جماعته، وتسفير بعضهم إلى بعض الدول العربية مثل الأردن واليمن والسعودية والجزائر، وكذلك اليونان (اعتقادا منه أنها أرض أهل الكهف لجمع الأموال، ولاختيار أنسب أرض يخرجون إلى جبالها فيما بعد ليعودوا منها العودة الكبرى لقتال الكافرين من المسلمين وبسط نفوذه عليهم باعتباره كما قال عن نفسه أنه المهدى المُنتظر، وأمير آخر



فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي
.. دفع حياته ثمناً لشجاعته في الحق

الزمان، ووقع اختياره على (اليمن) لكثرة ما ورد فى مناقبها من روايات نبوية فى البخارى ومسلم .

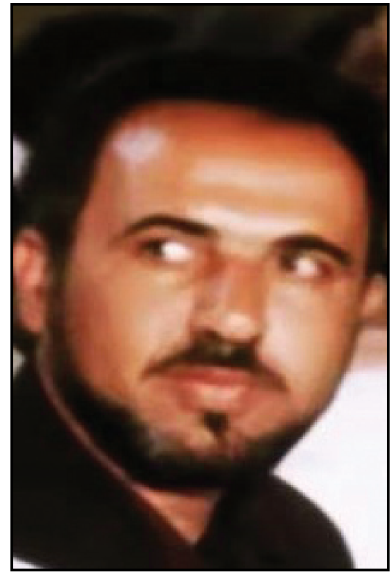
لماذا الشيخ الذهبى ؟!:

أصدرت وزارة الأوقاف - عندما كان المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبى وزيرا لها - كتيباً لتفنيد تلك الأفكار المضللة لجماعة التكفير والهجرة، وبيان مدى بعدها عن جوهر الإسلام بمبادئه السمحة، وكتب الوزير مقدمته بنفسه، التى فضح فيها أساليبها ونبه إلى ضرورة حماية الشباب من أفكارها المنحرفة وانتشال أعضائها من الهاوية التى يتردون فيها.

هذا الكتيب كان يحمل عنوان «**قبسات من هدى الإسلام**»، وقد نشر عام ١٩٧٥ وقام بإعداده أعضاء المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف.

قال الدكتور الذهبى فى تقديم الكتاب:

«يبدو أن فريقاً من المتطرفين الذين يسعون فى الأرض فساداً، ولا يريدون لمصر استقراراً، قد استغلوا فى هذا الشباب حماس الدين، فآتوهم من هذا الجانب، وصوروا لهم المجتمع الذى يعيشون فيه بأنه



الإرهابي صالح سرية
زعيم تنظيم «الفنية العسكرية»



الإرهابي شكري مصطفى
زعيم تنظيم «التكفير والهجرة»

مجتمع كافر، تجب مقاومته ولا تجوز معايشته، فلجأ منهم من لجأ إلى الثورة والعنف، واعتزل منهم من اعتزل جماعة المسلمين، وآووا إلى المغارات والكهوف، ورفض هؤلاء وأولئك المجتمع الذى ينتمون إليه لأنه فى نظرهم مجتمع كافر.» .

.. وبناء عليه أصدرت الجماعة المارقة حكمها الجائر بقتل الشهيد الدكتور محمد حسين الذهبى (يرحمه الله) .

زيارة السادات لإسرائيل:

كنت فى نوبة حراسة «كينجي» فى إحدى النقاط الحصينة على حدود سيناء المحتلة ليلة ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ عندما زار السادات إسرائيل لأول مرة، وشاهدت بعينى الطلقات الضوئية التى أطلقها جنود الصهاينة فى سماء سيناء ابتهاجاً بزيارة السادات لهم .

وفى ١٨ فبراير ١٩٧٨ بينما كنت عائداً وحدتى نقلت الأخبار إلىّ نبأ استشهاد الأستاذ يوسف السباعى على أرض لارناكا .. بكيت بحرقة الرجل الذى علمنى فن إدارة العلاقات المحكومة بالصراع، وكان مبعث حزنى ثلاثة أمور:

الأول: أن القتلة ألبسوه عار غيره؛ فلم يكن الفارس الشهيد صانع

قرار السلام مع دولة الكيان الصهيونى .

الثانى: أن القتلة من الفلسطينيين الذين أفنى الفارس الشهيد عمره فى الدفاع عن قضيتهم .

الثالث: أن الحجج التى ساقها القتلة لم تكن مقنعة؛ فقد كان السبب الحقيقى لقتل الفارس الشهيد هو إصداره قرارا بإغلاق مجلة «الطليعة» الشيوعية التى نشرت سمومها بين الشباب؛ مما حدا بـ K.G.B. إلى اختراق أحد التنظيمات الفلسطينية وتوظيفه فى قتل الفارس الشهيد !!

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ وبعد انقضاء خدمتى العسكرية بشهرين وقع الرئيس السادات اتفاقية كامب ديفيد مع دولة الكيان الصهيونى ومن يومها والحق الفلسطينى يفقد فى كل مرحلة ركناً من أركانه !!، وتسلم الرئيس مبارك سيناء بشرط أن تظل منزوعة السلاح مخللة من البشر خالية من عوامل النماء .. ليكشف بيريز عما ينتظرها فى كتابه بعنوان:«الشرق الأوسط الجديد» الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٤.

وفى ٦ ديسمبر ٢٠١٧ اتخذ الرئيس الأمريكى بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس ليسدل الستار على الحق الفلسطينى بعد صمت مصر وموافقة السعودية!!؛ وليبدأ مخطط ترسيم حدود الشرق الأوسط الجديد وفق ما أعلنه شيمون بيريز فى كتابه بعنوان: «**الشرق الأوسط الجديد**» ويشرح بيريز كيفية ترسيم حدود المنطقة عبر المشروعات الإلهائية العابرة للحدود، وضمان أمن إسرائيل القومى بعد وجودها العسكرى فى جزيرتى



الفارس الشهيد يوسف السباعي بنظرته المتفحصة
لمعادن الرجال ومعاني الأحداث ومضامين الأشياء

تيران وصنافير، وأخطرها أن تصبح النقب جزءا من حوض النيل بعد وصول مياه نهر النيل إليها !!

أهمية كتاب «الشرق الأوسط الجديد» أن مؤلفه يعتبر مهندساً للسلام المزعوم من ناحية وواحداً من أهم صانعى القرار السياسى فى تاريخ إسرائيل، قدّم بيريز كتابه كأسلوب جديد فى التفكير للوصول لأمن إسرائيل، والذى يتطلب من دول المنطقة ككل تحالفات سياسية ونظم أمنية وترتيبات إقليمية مشتركة تضم إسرائيل ككيان فاعل وقائد فى مشروع بديل للجامعة العربية، وتحدث عن فشل الحروب وأهمية السلام، مما يفرض على المنطقة سوق شرق أوسطى ضمن علاقة تعاقدية بين الدول العربية وإيران وتركيا ودولة الأكراد الجديدة (من أجزاء من العراق وسوريا وتركيا) وإسرائيل، علاقة يكون فيها البنك أكثر فاعلية من الدبابة ـ على حد قوله ـ وأنه يجب دمج دول المنطقة في كونسرتيومات Consortiums (اتحادات) تقوم بعمل مشروعات ضخمة عابرة للحدود بدعم من الرأسمالية الدولية في صورة قروض برعاية إحدى الدول الموجودة بالمنطقة (إسرائيل)!!

وفى يناير ٢٠١٨ وقعت مصر اتفاقية CISMOA وهى اختصار لعبارة:

The Communication Interoperability and Security»
«Memorandum of Agreement

وهى اتفاقية أمنية بين أمريكا والدولة الموقعة عليها الهدف منها أن تقوم الدولة الموقعة على الاتفاقية بالعمل على جعل أنظمتها وشفراتها الإكترونية متوافقة مع النظم الأمريكية وبحيث تصبح تلك الشفرات متاحة لأجهزة فك الشفرات الأمريكية بحيث تصبح قادرة على قراءتها بسهولة، وكذلك السماح للقوات الأمريكية بالحصول على أقصى مساعدة مُمكنة من الدولة الموقعة من استخدام للقواعد العسكرية والمطارات والموانئ، والاطّلاع والتفتيش على المعدات العسكرية لضمان عدم قيام الدولة بنقل التكنولوجيا الأمريكية لطرف ثالث، وبمقتضى تلك الاتفاقية تصبح القوات المسلحة للدول الموقعة كما لو كانت جزءا من الجيش الأمريكى، وتضمنت الاتفاقية ألا تقوم الدول الموقعة بمواجهة عسكرية بين بعضها البعض فأسلحتها مزودة بدوائر تعارف إليكترونية تظهرها كأهداف صديقة، فعلى سبيل المثال لا يمكن لطائرة دولة موقعة على الاتفاقية أن تضرب هدفاً إسرائيلياً بينما تستطيع الطائرات الإسرائيلية أن تفعل ذلك لأن إسرائيل هى التى تصنع دوائر التعارف الإلكترونية الخاصة بطائرتها .

بما يعنى أننا أمام معركة التحدي للحفاظ على الحدود واثبات الوجود!!

لقد عرفت الآن .. الآن فقط لماذا بكى المشير محمد عبد الغنى الجمسى فى أسوان فى يناير ١٩٧٤ بعد لقاء الرئيس السادات بكيسنجر .

***

.. وهكذا عشت حلاوة الأيام ومرارتها فى وطنى .. سنوات اختلط فيها الكابوس بالحلم واختلط فيها الخاص بالعام، ولم أستطع الفصل بينهما إلى يومنا هذا؛ فأنا لا أنظر من ثقب الباب الى وطنى . . لكنى أنظر إلى أحوال وطنى من قلب مثقوب، . . أو كما يقول الشاعر العراقى يوسف الصايغ فى قصيدته بعنوان: «**ما كان يمكن..!**».

«أنا لا أنظر من ثقب الباب الى وطنى
. . لكنى أنظر من قلب مثقوب . .
وأميز بين الوطن الغالب . .
والوطن المغلوب. . . .
اللهُ لمن يتنصتُ فى الليل على قلبه!
أو يسترق السمع الى رئتيه !
وطنى لم يشهد زورا يوما..
لكن شهدوا بالزور عليه..»

***

(انتهى الجزء الثانى من حكايات من زمن الخوف)

إلى اللقاء فى الجزء الثالث بعنوان:

(صحافة الوطن)

فهرس الكتاب :

كتب للمؤلف :

١ ـ حكايات تافهه جداً (مجموعة قصص قصيرة).

٢ ـ ON LINE .. الإعلام البديل (دراسة).

٣ ـ حنظلة .. صديقى رئيس التحرير (رواية صحفية)..

٤ ـ أخلاقيات الصورة الصحفية (دراسة).

٥ ـ صناعة الكذب (دراسة) تتناول أشهر القصص المفبركة فى الصحف المصرية.

٦ ـ حرب المعلومات (دراسة).

٧ ـ المذكرات .. و «القتل النظيف» (دراسة).

٨ ـ حكايات من زمن الخوف ـ ثلاثة أجزاء ـ (شهادة على العصر ١٩٥٤ ـ ٢٠١٤).

حكايات من زمن الخوف

شهادة على العصر (١٩٥٤ ـ ٢٠١٤)

الجزء الأول



ياسر بكر



.. الإنسان مثل بصمة الإصبع .. لا يتشابة ولا يتكرر.

.. قد تتشابة ملامح الوجوه، وصور الأجساد؛ فيبدو الإنسان متشابهاً في ظاهرة من وجهة نظر بعض من قصرت أبصارهم وعميت بصائرهم، وبعض من ضعاف العقول، وبعض من فقراء المعرفة مثلهم في ذلك مثل الكثيرين من بائسي الموهبة .. العارين من ثراء اللغة .. قليلى الدراية بـ «عملية الكتابة» الذين يسقطون في أسر «مرادفات الكلمات» .. التي تبدو في ظاهرها متماثلة، لكن جوهرها يحمل في طياته الكثير من الاختلاف!!

.. كذلك أيضا قد تبدو التجارب الإنسانية، لكن مما لا شك فيه أن لكل تجربة على حدة تفردها، وخصوصيتها!!؛ .. لأننا في النهاية بشر نتعامل مع الواقع بعقولنا ومشاعرنا ومخزون معارفنا، ونعيد تشكيل الأفكار لنصنع منها «حزمة من القيم» المحكومة بـ «وهم الصواب» المفترض أو المتخيل أو المتوهم بما يحقق مصالحنا.

.. في «حكايات من زمن الخوف».. عن تجربتي الشخصية أتحدث .

ياسر بكر

طبع بمطابع حواس * توزيع أخبار اليوم

الثمن مائة جنية